قصص للجميع
رواية

السيف والشيطان

تأليف

محمد عدنان سلطاني

قدم له
د. أحمد صفوح زين العابدين

راجعها
الدكتور محمد علي سلطاني
أستاذ علوم اللغة العربية

تقديم

روايتنا «السيف والشيطان» هذه ثمرة فنية ناضجة لموهبة مصقولة، بأسلوب شيق وتعبير جذاب، وتهدف إلى تحقيق مُثُل الخير والحق، عبر أحداثٍ من حياة الناس وعلاقاتهم.. للعودة بالإنسان إلى الفطرة السليمة التي كاد يفقدها، من خلال متعة فنية غامرة، ترتقي بذوق القارئ وتنمي ضميره الإنساني، وتعمق نظرته إلى الحياة والأحياء... مما يشد القارئ حتى الكلمة الأخيرة. تلك هي غاية صاحب (قصص للجميع) في روايته هذه وغيرها، والله سبحانه من وراء القصد.

أ.د/ محمد علي سلطاني

@ @ @

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الكاتب «محمد عدنان سلطاني» عمد في روايته «السيف والشيطان» كتابتها بأسلوب شيق يشد القارئ ويأخذ حيزاً من تفكيره، مهما كان سنه أو ثقافته أو استيعابه للأحداث، واضعاً نصب عينيه سعي القارئ إلى تحليل تلك الأحداث بدءاً من القائمين في خضمها أو العاملين في بعض مجرياتها، أو القريبين منها، أو أنهم سمعوا بأحداثها عند اكتمال وعيهم كلٌ حسب رؤيته مما يفتح المجال للحكم عليها من منظاره الخاص.

باعتبار أن الكاتب وظف عقله لا عاطفته في سرد حوادثها مقتحماً واقعاً شائكاً يسوده الاضطراب وتتقاذفه الأطماع ويجد الأقوى العالم أمامه مرتعاً خصباً لإظهار قوته وشراهته.

كيف لا وقد أخذت نعوقهم تتعالى وهي قادمة من الغرب بعد فقدان أمتنا منعتها لتحط بين جنباتها تنهب ما لديها من ثروات بعد نجاحهم بتجزيء المجزأ من كياناتها إلى دول فتاة مع مواصلة بث الفرقة بينها بإقامة بؤره استيطانية لكيان مستورد بغية قطع أوصالها وادخال أفكار وأفعال مخططة لإفساد ما تتحلى به تلك الأمة من أخلاق وقيم دينية وثقافية وأسروية ليسهل عليهم طمس هويتها ساعين إلى تنفيذ قول الشاعر.

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن ذهبت أخلاقهم ذهبوا

د. أحمد صفوح زين العابدين

شكر وتقدير

إني أشكر الكاتب على ما بذله من جهد في كتابة القصص التي قام بنشرها والتي تمتاز بشد انتباه القاريء وانسجامه مع القصة وتعلقه بمجريات أمور القصة بحيث لا يستطيع تركها بسهولة وهذه الميزة النادرة في كثير من الكتب العربية تفيد في شد القاريء إلى الكتاب وخاصة في هذا العصر الذي انتشرت فيها الإذاعات الفضائية المرئية التي خففت من نسبة القراء والقراءة وفي هذا الوقت ونحن بحاجة ماسة إلى هذه النوعية من القراءة السلسة التي تزيد ثقافة القاريء وتعطيه الجاذبية للقراءة وترك التلفاز.

أكرر شكري وتقديري للكاتب الأستاذ محمد عدنان سلطاني، وأرجو من كتّابنا الأكارم أن يضعوا بعين الاعتبار هذه الميزة التي نحن بحاجة ماسة لها.

الرواية التي نحن بصددها هي الإنجاز المتصاعد للكاتب والروائي محمد عدنان سلطاني بسلسلته الرائعة «قصص للجميع» فقد سبقتها مجموعات قصصية وروايات مثيرة يغلب عليها الطابع الإنساني المميز بأشكاله المختلفة والتي تشد القاريء وترتقي بذوقه وتنمي مداركه الإنسانية.

دمشق في 2004/5/10

الدكتور
أحمد صفوح زين
العابدين

@ @ @

بسم الله الرحمن الرحيم

السيف والشيطان

في أي زمان وفي كل مكان ما دامت دورة الحياة على نهجها ـ يبقى الصراع على أشده بين الخير والشر، والعدل والظلم. ولكلٍ أدواتُه ومناصروه.. وقصتنا تدور حوادثها في زمان ككل زمان، في مملكة مترامية الأطراف يحكمها ملك عطوف متسامح متفانٍ في خدمة وطنه وشعبه يكره الظلم ويحارب الشر وأدواته حتى أصبح عَلَماً من أعلام العدل، يشار إليه بالبنان يساعده في كل شيء الأخيارُ من شعبه من علماءَ وفقهاءَ ورجالِ قانون، وكان لذلك الملكِ حفيدٌ يماثله في التفكير مما حدا بالملك إلى إبقاء ذلك الحفيدِ بجانبه ما دام في إيوانه مما خلق لدى ذلك الحفيد حساسيةً فائقة في تمييز ما يدور حولهِ لدرجة أنّ جدَّه كان يأخذ ببعض آرائه عندما يُقْدم على عمل جَلَل تكون سبلُ الاختيارِ فيه محدودة.

مضت السنون وفي إحدى الأمسيات والملكُ رياض ملكُ مملكة الوئام يتداول في أمور الدولة مع مساعديه، وبجانبه حفيده خلدون، دخل عليهم رجل مهيب بشكله المضيء، وجبهته الناصعة، ولحيته المتدلية التي تزين وجهه وصدره، بعمامته ولباسه الناصع البياض، وألقى السلام ثم جال ببصره الحاد على الحضور ولما وصل نظره إلى خلدون أشار إليه بالبنان وقال ـ وهو مقطب الجبين ـ: هذا هو ... نعم.. هذا هو، وغادر أمام ذهول وصمت الجميع الذين كانوا يركزون نظرهم على الرجل وخلدون، الذي ظهرت عليه الحيرة والانكماش، ولما همّ الملك بالاستقصاء لم يجد أمامه إلا الحاجب الذي أعلمه بأن أحداً لم يستأذنه بالدخول وخاصة في الساعات الأخيرة، فظهر التعجب والحيرة على وجه وحركات الملك وهو يحاور الحضور موجهاً أسئلة أبرزها: إن كان أحد منهم قد تعرف إلى هذا الزائر؟ وما صلة زيارته بحفيده؟ ومن أين هو؟ ثم تساءل كيف تسنى له الدخول والخروج من القاعة بينما حرّاس القصر لم يلحظوا دخول أو خروج أحد يملك تلك

الصفات؟ ولا أحد من الحضور تسنى له التعرف على ذلك الرجل أو رؤيته في طول المملكة وعرضها.

بينما كان الحضور يتداولون في الأمر والحيرة بادية على محياهم كان صمت خلدون المطبق قد أثار حفيظة جده الذي أخذ يبحث مع مساعديه كيفية حماية خلدون إن كان ما رآه يدخل في نطاق الشر، فتوصل النقاش إلى حل أَرْضَى خلدون وبعث في نفسه الطمأنينة، عندما أبلغ بأنه سيلازم جدّه وفي مكان إقامته وترك مكان إقامته الحالية بجوار أبيه الأمير أجرد وليّ عهد المملكة. وتم الاتفاق على وضع برنامج مكثف له، تقوم بموجبه لجان عسكرية وسياسية وعلمية وعلى أعلى المستويات لتهيئته ليكون نِدّاً يفرض نفسه على الأحداث.

مضت أيام وبقي الجميع يذْكُرون تلك الليلةَ التي كانت الحافزَ برفع قدرة خلدون العسكرية والعلمية وما إن بدأ يتجاوز العقد الثاني من عمره حتى أصبح عَلَماً من أعلام المملكة العسكرية والسياسية والعلمية حتى إن والده أجرد لم يُخْفِ خشيته من أن ينافسه ابنه على ولاية العهد بأن يقوم الملك رياض في لحظة زَهْو بحفيده ـ على إقصاء ولده من ولاية العهد ـ وخاصة أن جدارته لدى الملك مهزوزة ـ وتسمية خلدون مكانه.

ولكن غدر الزمن قد أفقدت خلدون كل ما كان يحظى به في ظل جده، فقد واتت المنية ذلك الجد العتيد رياض، فحزن عليه حزناً شديداً وشمل ذلك الحزن سكان المملكة بشبابها وشيبها وكان من نتائجها ارتقاء والده أجرد عرش المملكة وبدأ حكمه بأن أقصى من الحكم رجال والده دون أن يقطع خلدون صلته بهم وخاصة معلمه وشيخه الشيخ رشيد الذي كان متنفسه الأقرب عند الشدائد وبدأ الغموض يكتنف المملكة مع مرور الأشهر والسنين وزاد الطين بلّة التجاءُ المظلومين الذين تزداد أعدادهم في كل يوم ـ إلى قصر خلدون الذي كان يسعى بكل جهده لرفع المعاناة عنهم ولكن الإخفاق كان رائدَه في كل مساعه، دون أن يجد الوقت الكافي لزيارة من كانوا جزءاً من

حياته أبّان عهد جده المغفور له الملك رياض، حتى معلمه الشيخ رشيد.

إلى أن كان يومٌ واجهت خلدون فيه أحداثٌ جسام لا قبل له بحلها فالتجأ إلى معلمه الشيخ رشيد يلتمس منه النصيحة والإرشاد ويشكو إليه تفاقم ظلم أبيه وبطانته شعبَ بلاده بلاد الوئام، الذين جعلهم الله في عهدته ليكون لهم الأب الحاكم، والخادم العادل، والسائس العطوف، والراعي أبداً لمصالحهم.

وهو في الحقيقة ظالم لهم، بطاش بهم، له باعه الطول في ممارسة القتل بسبب ودون سبب. ووزراؤه كذلك يجورون ويفعلون ما يرغبون بفعله بعلم مليكهم أو دون علمه، حتى القادة العسكريون لا يتوانون عن البطش والتنكيل، ينفّذون ما يرغب به مليكهم وسياسيوهم من كبت وتعذيب، وهذا الوضع جعل من الأمير متنفساً للمظلومين من شعبه ومن ينكّل بهم بصفته ولياً للعهد، حتى ضاق بهم قصره، وأصبح في حيرة من أمره، فأجهزة أبيه الإدارية والأمنية لا تعيره كبير اهتمام، ويتجاهلون في كل مرة يضعهم فيها أمام مسؤولياتهم. والأمر الأنكى أنه كان يجد نفسه في كل مرة وجهً لوجه أمام والده وبطانته، يحاجج ويَلْقَى منهم التندر من كل ما يقوله، وكأن أموال وأرواح الناس الذين جعلهم الله في عهدتهم مجرد أرقام بلا شعور.

فردّ الشيخ وهو يهز رأسه: وما الجديد في ذلك يا ولدي، ففي كل مرة نلتقي فيها أسمع نفسها، وألمس عجزك عن الإصلاح، وإني لا ألومك فأنا ومدربك العسكري متنفَّسُك الأوحد في هذه البلاد، ولا قدرة لدينا على شد أزرك، فنحن أشد ضعفاً منك، فأنت يا ولدي رغم قوتك وشهامتك وحبك للخير ومركزك المرموق. لا مكان لك في فعل أي شيء، لا مع بطانة أبيك من وزراء وقادة عسكريين، ولا مع أدنى من ذلك.. فلا جهازٌ إداريٌ يفعل ما تأمره، ولا قائدٌ عسكري يأخذ بما تقوله فلا حاجة لي في أن أكرر نصيحتي بأن تلازم قصرك، وتبتعد عن الناس ومشكلات الناس، قبل أن تصبح ضحية من ضحايا الفوضى التي تعم المملكة.. فرد الأمير: حتى بعد ما شاهدته ولمسته اليوم؟ فقال

الشيخ رشيد: وهل ما شاهدته شيء لا نعرفه؟ أو لم تسمعْني إياه من قبل ورددته على مسامعي مراراً وتكراراً؟! فيا ولدي منذ عام مضى ـ أي منذ تعيين والدك للقاضي الحبشي وزيراً له ـ وانتقادك لهذا التعيين هو هو... والوزير الجديد يزاول عمله السابق قاضياً لقضاة المملكة، لأن عمله وزيراً وقاضياً للقضاة أتاح له فرصة الهيمنة على السلطتين المتعارضتين التنفيذية والقضائية، أي إنه أصبح الحاكم المطلق في أكثر أمور الدولة خطورة ودقة.. هذا كله فهمته وحفر حفرة في نفسي صعب ردمها، وأبديت لك النصيحة تلو النصيحة بترك تحيزك للوزير المطرود سعيد، وأنا لا ألومك، فالوزير سعيد كان مثالياً، وحبك وحماستك له أضاعا عليك تجربة القاضي الحبشي الوزير القوي، والتعرف عليه جيداً، وبناء علاقة معه تتمكن من خلالها إصلاح ما تود إصلاحه من أمور الدولة.

قاطع الأمير خلدون معلمَه وشيخه الشيخَ رشيداً مضيفاً أن اعتراضاته هذه تعدّ إجرائية، فاعتراضه الرئيسي انصبّ على أسلوب التعيين الذي اعتمد على نجاح الحبشي في المباريات السنوية، دون النظر إلى ما يتطلبه هذا المنصب من علم فقهي، ودراية أدبية وعلمية وقانونية، وحنكة سياسية، وإن القوة والقدرة التي يتمتع بها الحبشي تؤهله ليتبوأ قيادة عسكرية من نوع ما، وخاصة مراكز لتدريب القادة على الطرق التي استحدثها وطبّقها وفاز بها لأعوام ثلاثة خلت، والتي أخرجت أبي من صمته ليعلن تعيين الفائز وزيراً له، وهو يعلم مسبقاً أن الفوز لن يكون إلا من نصيب الحبشي، الذي فاز في العامين الفائتين دون منافسة حقيقية، ولم أنس ما ورطني به عندما دُعيت وشاركت وفشلت بمباريات السنة الأخيرة..

ولكن يا معلمي ما جئت الآن من أجل ذلك وإن ما سأخبرك به يخرج عن كل ما أخبرتك به في الماضي فأرجوك كلَّ الرجاء أن تتركني أشرح دون مقاطعة، فالأمر لا يحتمل التأجيل، والمملكة في خطر، بل الجميع في خطر. فرد الشيخ رشيد ـ وقد أثارته عبارات خلدون المعبِّرة بقسمات وجهه وخروجه من هدوئه المعهود واندفاعه ـ بقوله: قل يا ولدي قل ونفّس عما يجيش في صدرك، فكلي آذان

مصغية. فرد خلدون ما سأقوله يا معلمي يخرج عما يجيش أو يختزن في صدري، بل إن ما رأيته ولمسته هذا اليوم في قصر والدي من الموبقات وما تعرضت له من قرارات مهينة قد دفعني للالتجاء وطلب العون من شيخي الجليل الشيخ رشيد، الذي أُكنّ له كل محبة واحترام. فرد الشيخ داعياً الأمير خلدون لشرح مشاهداته وما ناله في حضرة أبيه دون خوف أو تردد. حينها تنحنح الأمير وقال:

منذ أسبوعين حضرَتْ إلى قصري فتاة أنهكها الخوف، تشكو اقتياد والدها إلى السجن بتهمة نشر إشاعة ظلم الملك، فتأثرتُ كثيراً لمنظر الرعب البادي على وجهها، ودبّت فيّ الحماسة، فقمت من مجلسي واعداً إياها بإنصافها. فجهزتُ عربتي الملكية، وغادرتُ قصري متوجهاً إلى سجن المدينة، فاستُقْبلت من حرّاسه استقبال الأمير والمفتش والراعي، وقمت بتفتيش السجن زنزانةً زنزانة، فراعني ما شاهدت من مظاهر الموت بالجملة، والتعذيب الذي يجري لسجناءَ لا يعلمون سبب وجودهم، ولسجناءَ آخرين حالتهم الصحية يُرثى لها.. فلا طعام يكفيهم، ولا ماء نظيفاً يرويهم، بأجسامهم التي يعتريها النحول الفائق وكلامهم المتثاقل الذي يخرج من أفواههم بشق النفس، مما أثار الحزن العميق في نفسي، فاتخذت مبادرة حينما دخلت من فوري إدارة السجن، وأَلقيت تبعاتِ ما يحدث إلى إداريي هذا السجن وحدهم، وكان إن كلامي واضحاً أثار الذعر والخوف بهؤلاء المسؤولين، وأمرت بجلب الطعام، وإجراء الماء في الصنابير، وإخراج المرضى من العنابر.

وخرجت من السجن وقد وقر في نفسي بأن الله قد وضعني في موقع المسؤولية وأنا مقصّر في حملها، وسيكون لي تعويض ما فات لو راجعتُ والدي وأقنعته بقدرتي على حمل جانب الحكم المناط بأمثالي من أولياء العهد. ولكنّ ما حدث أفزعني وحَرَفني عما خططت له، حينما استدعاني والدي إلى قصره على غير عادته، فتوجهت إليه والخوف يلفني، وأنا احسِب لكل خطوة حسابها، ووصلت ودخلت قاعة العرش والحاجب ينبئ بحضوري وأنا في دوامةٍ أضربُ أخماساً بأسداس، ولَدَى دخولي قاعة العرش راعني ما رأيت، فقد رأيت والدي

وحاشيتَه يحتسون الخمر..
لا تنظر إليّ هكذا نعم يحتسون الخمر، كما كان هناك ما هو أسوأ من ذلك، فقد رأيت النساء في كل مكان، فمنهم الراقصات العاريات، والمحظيات اللاتي كنّ في الأحضان، ويشمل ذلك والدي بعمامته التي كانت في وضع مخالف، وقاضي القضاة الوزير الحبشي بيده كأس خمر مرفوع نحو كرسي عرش والدي وهو في وضع الانحناء، ودخولي عليهم دفع الجميع إلى السكون والنظر نحوي، فاستقبلني والدي استقبالاً لا أحسد عليه، وكان نظري ما زال يجوب القاعة متفحصاً وجوه ومواقع الحاضرين وكلُّهم حسب ظن الناس من العلماء الأجلاء ولما وصل نظري إلى الوزير الحبشي الذي كان في وضع الانحناء وبيده كأس يفيض بالخمر مرفوعٌ نحو كرسي العرش منتظراً من والدي أخذه ـ تبادلتُ مع الحبشي النظرات العميقة، فرأيت ما لم أتوقعه ولم يَدُر بخَلَد أحد، فقد أراني الله الوزير الحبشي على حقيقته، فقد أخذ التحول يأخذ مجراه في هذا الرجل، فبدأ في رأسه الذي تجرد من عمامته، وظهر رأساً صاعداً نحيلاً مكسوّاً بوبر أسود، محفوفاً بقرنين صغيرين يلمعان، على جبهة سوداء يكسوها الوبر الكثيف، وعينين جاحظتين ممتدتين بشكل وحشي نحو الأعلى، وأذنين مخروطتين بزاوية حادة مسترخيتين، واستمرّ التجرد والتحول ليشمل ما تحت الرأس، وظهر لي جسمه النحيل الأسود بيدين طويلتين يعلوهما ما يعلو جمسه من الوبر الأسود الكثيف المنتصب، وبنهاية يديه ظهرت أصابعه بطولها المديد وأظافرها الحادة كأنها الخناجر، واستمررت بالنظر حتى شمل ما تحت الورك، فرأيت ذنباً طويلاً معكوفاً يخرج منه وفي آخره سهم منتصب واستمر نظري بالهبوط وجسمُ الحبشي بالتجرد، وأنا أرى ما بقي من جسمه شاملاً فخذين نحيلين أسودين موصولين بقدمين طويلتين غريبتين بأظافرهما الممتدة، وظهر لي الحبشي متجرداً من كامل ألبسته شيطاناً مريداً ليس له مثيل على الأرض، فجُلت بصري نحو الحضور لأرى هل ما أراه يراه غيري، أما أن الله قد خصني وحدي برؤية ما أراه بهذا الوزير المريد؟! وحِرت في أمري، ولم أعرف ماذا أفعل، هل أعود من حيث

أتيت أو أتقدم نحو والدي وأفعل كما كنت أفعل بالجثو وتقبيل يده.. فرأيت نفسي اندفع دون وعي نحو كرسي ولي العهد بغية الجلوس، لأن ما يدور برأس أفقدني توازني، ولما هممت بالجلوس سمعت صوت والدي يدعوني إلى البقاء في مكاني وسماع ما سيقوله، وكأن المحاكمة القصيرة والأحكام الجائرة غيرُ القابلة للطعن قد جمّدت الدم في عروقي، وما تضمنته هو تجريدي من ولاية العهد حتى أفيء إلى نفسي، والبقاء في قصري لا أبرحه أبداً إلا بإذن مسبق منه شخصياً، والأسباب التي اعتمد عليها كثيرة ومتنوعة، منها ما جرى ومنها ما لم يجر، وكان آخرَها زيارتي للسجن، والأوامر التي أصدرتها لحماية السجناء باعتبارها القشة التي قصمت ظهر البعير.

ولما لم يسمح لي بالدفاع عن نفسي مع خوفي من تمادي الأحكام في هذا الجو المشحون بالحقد والكراهية وحتى لا أعطيهم الوقت للتمادي وأنا أشعر بأن رأسي هي المستهدفة ـ فقد رأيت أن الأجدى لي وأنا الضعيف ـ أن أغادر قاعة العرش على الفور، وغادرت القاعة وأنا أتبادل النظرات مع الوزير الحبشي بشكله الغريب. وغادرت قصر والدي لا ألوي على شيء، ولا أعرف ماذا أفعل... فمنظر الوزير الحبشي لم يغادر مخيلتي، وأوامر والدي ترنّ في أذني وتفعل فعلها في نفسي، ولن أجد مَن أبثه همومي وهواجسي سوى شيخي رشيد، فجئتك مناشداً إيجاد مخرج لحالتي فالخطر يلازمني ويقض مضجعي.

وبينما كان الأمير خلدون يشرح الجديد من أمره لشيخه كان الشيخ رشيد يبحث عن حل يُخرج ذلك الأمير مما هو فيه، وخاصة أن رؤيته للوزير الحبشي على حقيقته يضعه أمام أمرين لا ثالث لهما: إما العودة إلى قصره مع الخطر المحدق على حياته، وإما أن يختفي حتى يفعل الله ما يشاء. وبعد تفكير عميق توارد إلى ذهن الشيخ رشيد أمرٌ ناقشه قليلاً في ذاته ثم بثه إلى تلميذه قائلاً:

إن ما رأيتَه يا ولدي يضعك في مصافّ الأتقياء لله تعالى، فقد كشف لك حقيقة الوزير الحبشي، وهذا الكشف يدفعني لإرسالك إلى

شيخي العارف بالله الشيخ ضياء الدين، فهو وحده يفسر لك ما رأيت ويختار لك الصواب. فرد الأمير خلدون وقد ظهر عليه التعجب سائلاً شيخه عن شيخٍ يفوقه، وهو الذي ما عَرف غيره شيخاً ولا عالماً.. وهنا أدرك الأمير أنه أمام أمر جلل يفوق قدرة شيخه على حله، والذي أسعده وأثلج صدره أن يكون في المملكة رجالٌ كبار أتقياء غيرُ معروفين من والده وزبانيته وقدرتُهم غير محدودة، وعرف بأنه هو الذي اختير لتنظيف المملكة وحماية الرعية. وهنا سمع من شيخه وهو يُعْلمه بمكان شيخه السري، وبقي يحثّه للحفاظ على سريّة الطريقِ والمكانِ والشيخ حتى خرج من عنده.

نفّذ الأمير خلدون أوامر شيخه، وغادره ممتطياً حصانه نحو جبل اليافع، هذا الجبل المطل على المدينة، فوصل إليه وتتبّع العلامات التي وضّحها له شيخه، فوجد مغارة متوارية خلف الصخور لا يمكن لأحد الولوج إليها دون توضيح مسهب لعلامات متناثرة، فدخلها بعد أن خلع نعليه خارجاً، والتقى داخلها بالرجل الذي أثار الذعر في إيوان جده بشكله المضيء وجبهته الناصعة واللحية المتدلية التي تزين وجهه وجزءاً من صدره، يجلس في وسط أريكة تحفها الكتب من كل جانب، وفي وسط المغارة بركةُ ماء صافيةٌ رقراقة، وفي زاويتها مصلًّى يتوسطه محراب، فتقدم الأمير خلدون وقبّل يد الشيخ ضياء الدين حاملاً قصاصة ورق زوّده بها الشيخ رشيد، وما أن رأى الشيخ ضياء الدين محتويات الورقة حتى دعاه للجلوس بين يديه وقال:

يا ولدي إنّ ما رأيتَه هو الشيطان كما هو دون براقع، كما يراه الأتقياء والعارفون بالله، وأعتقد بأن الله قد خصّك لتكون النِدّ والمخلّص، لأنه رآك هو أيضاً بحلتك الجديدة، عندما رأى علامات التقى بتاجها المرفرف على رأسك، وهذا يفسّر شيئاً واحداً هو أنّ أحدكما سيقضي على الآخر، ولما كان الشيطان قد تملّك تاج أبيك بوصفه وزيراً ومالكاً لخيوط الحكم، وتمكَّن من بسط أذرعه على كامل المملكة من خلال سَحَرته ومَرَدته ومُشعوذيه، بتعيينهم حكاماً وقضاة ومسؤولين في أرجاء البلاد ـ فالخاسر في هذه الحالة هو أنت ما دمت لا تملك غير الكلام لمقاومته، وخاصة بعد فقدانك السلطة التي كانت

ممنوحة لك بحسب انتمائك، وإعدادك نفسك لمقارعته يتطلّب منك الإعدادَ اللازم، وهذا لا يأتي من فراغ، ولا يمكنك إزاحةُ الشيطان وإبعادهُ عن السيطرة على مملكتك وشعبك إلا إذا ملكتَ السلاحَ الماضي، وهذا هو السلاح الوحيد المرصود لقهره، وإنه ليس كأسلحتنا، وإنما هو سيفٌ نادر صنعه سبعةٌ من العارفين بالله، وقد تمكن الشيطان من إبعاده وإخفائه في كهف قَصِيّ في الأرض، يقوم على حراسته ثلاثةُ رجال أشداء اسمه كهفُ المَرَدة، ويقع في الشمال بين شعابٍ تحفها الجبالُ الشاهقة والطبيعة القاسية والثلج الدائم، والوصول إليه بالرواحل مستحيل، وإنما على الأقدام، في بلاد اسمها غريب عن أسماعنا فهي بلاد الهِيم، وكهف المَرَدة لا يبعد كثيراً عن حاضرةٍ تسمى حاضرةَ الأرغن، والسفرُ إلى تلك الحاضرة صعب ومضن، والأخطارُ محدقةٌ بالمسافر الذي لا أعداءَ له، فكيف إن كان أعداؤه من المَرَدة والشياطين الذين سيجدهم أينما وصل وحيثما حلّ.

أطرق الشيخُ ضياء الدين قليلاً ثم التفت إلى سامعه وقال: إني لا ألومك

يا ولدي إن اخترْتَ عدمَ المغامرة، فالأمرُ بغاية الصعوبة والخطر، وأنت رغم قوتك وجبروتك ستجد نفسك ضعيفاً مهزوزاً أمامها، أضف إلى ذلك إضاعةَ بضعِ سنين من عمرك، هذا إن أفلحت واجتزت جميع العوائق التي لا تحصى وعُدتَ إلينا سالماً..

أما الاحتمال الأقوى فهو أن تسقط عند أي عائقٍ من العوائق التي ستعترض طريقك، دون أن تنال ما تبغي نيله، وتعودَ إلينا بخُفَّي حنين إذا كتبت لك النجاة، ولكنّ الأمير خلدون الذي كان يستمع ويحلّل رفَع رأسَه طالباً من الشيخ الاستمرارَ بالتوضيح، لأن تصميمَه على تحرير بلاده وشعبه من رِبقةِ الشيطان لايوازيه شيء،

كما لا يغيب عن باله بأنْ لا مناص من مواجهة الشيطان، فالأفضل مواجهته والسلاحُ الماضي في يده من أن يواجهه أعزل، وأملُه كبير بأن الله الذي خصّه بهذه المهمةِ سيكون معه يُلهمه سواءَ السبيل.

ابتسم الشيخ وهنّأ الأميرَ خلدون على إيمانه وتصميمه ودعا له بالتوفيق، وحثّه على الإقامة لديه ثلاثة أيام يقوم خلالها بتهيئة نفسه ورواحلِه وأدواتِ رحلته، يتعرف في الوقت نفسه على ما يدور حوله بمراقبة قصره من مكانِهِ المرتفع. وحدث ما كان يتوقعه، ففي صباح اليوم التالي شاهد النار تلتهم قصره، وعَرف بأن الجنود منعوا القائمين في القصر من الخروج منه حتى أتت النيران على ما فيه، ظناً منهم بأن الأمير خلدون قد قضى نحبه داخل قصره وانتهى أمره.

بعد اكتمال أسباب الرحلة وحاجاتها غادر الأمير خلدون مغارة الشيخ ضياء الدين مودَّعاً بالدعاء، ومزوَّداً بأذكارٍ وأدعيةٍ وقراآت لحمايته من الأعداء، وخاصة مَنْ لهم قدراتٌ على كشف الخبايا من السَحَرة والمشعوذين، وزوّده بخارطة توضّح بخطوطها مسارَه دون أن يلتفت إلى الوراء، وكان يسعى أثناء سيره أنْ لا يحيد قيدَ أُنملة عن الاتجاه الموضَّح في الخارطة. واستمر على ذلك يسير بالليل وينام بالنهار حتى غادر حدود مملكة أبيه، وتنفس الصعداءَ عندما وجد نفسه يسير في بلادٍ لا يعرفه فيها أحد، وأصبح ينام في خاناتها ويأكل في مطاعمها ويتجول في أسواقها كأي مواطن عادي، واستساغ تلك الحياة وأحَبَّ الغوص فيها دون قلق أو وجل.

وفي أحد الأيام وبينما كان بين الشعاب تعطَّلتْ رحلتُه حينما نفقَتْ راحلةُ الأمتعة من رواحله، فتركها بين الشعاب ووضع ما تحمله على حصانه وسار هو بجواره، يبحث عن مكان يأوي إليه وعن راحلةٍ يشتريها، فوصل منزلاً منعزلاً، حاول منادياً التعرف على ساكنيه، ولما لم يُجب أحدٌ على ندائه وصلَ إليه، فوجد أبوابه ونوافذَه مُوصَدة، ولم يُفلحْ بفتحِ أيٍّ منها، ثم قام بالبحث حول المنزل عن أداةٍ ما لطرقِ باب المنزل، وأثناء بحثه تعثرت قدمه بقارورة بين الأعشاب، فتلقَّفها وقبض على ناصيتها ورفعها محاولاً صدمها بالباب، فاهتزت بين يديه وصَدَرَ من داخلها صوتٌ دفعه إلى إطلاقها من يده بعصبية مُفرطةٍ ودون اتزان مع قفزة هوائية غير إرادية نحو الخلف، وبقي نظرُه يلاحق مسارَها حتى اصطدامها بالأرض فوق الأعشاب، كما كانت أذنُه تلاحق وتتلمس صوتاً

مخبوتاً يصدُر من داخلها ووجد في هذا الصوت الرقةَ والعذاب والتنديد بأعداء الله، وخَصّت بتنديدها الشياطين والسَحَرة والمشعوذين، ورَجَتْه تحريرَها بالإقدام على فتح فوهة القارورة.

وقف خلدون مشدوهاً وهو يتابع الأقوالَ التي تَصدُر من القارورة، وعَرف بأن القارورةَ تحوي في دخلها فتاةً تتكلم، فتلقفَها مرةٌ أخرى بعد تردد برؤوس أصابعه ودققِ النظر فوجدها مجردَ قارورةٍ بيضاءَ قد أُحكم إغلاقها، فقربّها من وجهه ودقّق النظر متبعاً الصوتَ الصادرَ من داخلها الذي ما زال يتودد ويرجو، وبينما كانت أذنه تسمع كانت نفسه تحلّل ما تسمع، وقد توارد إلى ذهنه الخوفَ من أن يكون أعداؤه من رجال الشياطين يتابعونه ويكون مَن بداخلها سببَ إخفاقِ مهمته، ولكنّ الصوت من داخل القارورة استمر ينادي بجِدّة ويرجو التحرير، وسار وفكرُهُ يحلل والقارورة في يده حتى وصل إلى حصانه المربوط إلى أحد شبابيك المنزل، المنعزل، واستأنف محاولته لملاقاة أحدٍ من سكان المنزل، وسمع الجواب من القارورة نفسِها التي أبلغته بأن سُكانَ المنزل هم الآن أسماكٌ في بحيرة الشمع القريبة، وأنها رأت
ما حلّ بهم من خلال زجاج القارورة، وأن المنزلَ يجري استخدامُه الآن من قبل أربعةِ مشبوهين يأتون مساء كلَّ يوم يُمضون ليلتَهم فيه، ويومَ غياب القمر يأتي معهم مشبوهٌ كبير يرافقه عدد لا يستهان به. فقاطعها خلدون وسألها ماذا بمقدورها أن تفعل بعد تحريرها؟ فردّت بأنه لا مكانَ لديها تَؤُمُّه سوى بقائها معه حتى تتحرر من سحر ساحرِ مدينةِ القوارير المجاورة، وأنها ليست إلا فتاةً لا تُخيف أحداً لا تحمل كُرهاً أو حقداً لأحد.

حينها اختار خلدون المغامرة واستلّ سيفه وعالج فوهة القارورة، ليفلت الغطاءُ وتظهرَ من فوهتها حيةٌ تسعى، آملةً من خلدون حمايتَها باعتبار أن الخطر يلفها وهي تقول: الآن يا أميري لا يختلف أحدٌ عن أحد فالكل يناصبني العِداء، بدءاً من الإنسان ونهايةً بطائر جارح يتجول، إلا إذا واريتني بين أمتعتك لأيامٍ ثلاثة، عندها سيكون بمقدوري إذا مرت بسلام التحولُ وحمايةُ نفسي. فسألها خلدون وقد

عقدتْ إجابتُها لسانَه وبدت الدهشة على محياه متسائلاً: ماذا تحوُّل... كيف لي تصديقُ ما أسمع وأرى وهي جملةٌ من الغرائب لا قِبَلَ للعقل والمنطق بقُبولها، وأثناء ذلك عاد بمخيلته وتذكّر تحوُّلَ الحبشي، فتجاوز وسألها كيف أوتيتِ تلك القدرة؟ هل أنت من أعوان الشيطان؟ فردّتْ لا يا أميري أنا لست إلا فتاةً في مقتبل العمر لا أُجيد شيئاً، ولكنّ ساحرَ مدينةِ القوارير عندما قام بتحويلي إلى ما ترى، رجَوْتُه أن يرأف بحالي ويحولَني إلى شيء آخر غير الحيةِ لكُرهي الشديد لهذا المخلوق، فردّ وهو يضحك ضِحكة هيستيرية مدوية بأن ذلك لن يتم إلا بعد أن تتحرر الحية من القارورة، وتُمضي خارجَها ثلاثةَ أيام على الأقلّ، وأنّ ذلك لن يتم بسبب وجودها في أرض مرصودة وهذا مرهون بأمير يأتي من الجنوب، وها قد تم تحريري على يدي من أعتقد أنه أميرٌ جنوبيّ، وبحَلّ تلك العقدةِ يكون بمقدوري التحولُ إلى أي كائن حي أرغب أن أكونه عدا الإنسان، وإذا كان هذا الساحرُ اللعينُ صادقاً فحين تمضي تلك الأيام الثلاثة سأكون كما ترغب أن أكونه، وحتى تطمئن أيها الأمير الجنوبي إلى ما أقول، فإن مكان تحوُّلي إلى حية لا يبعد أكثر من ميلين من هنا على حافة بركة ماء، وقرب حافتها ستجد ما كنت أرتديه من لباس، وما كان بحوزتي من أمتعة وحُليّ.

طلب الأمير خلدون من الحية الاختباء، ووعدها بالعودة إليها وغادر المكان متجهاً نحو البركة الموصوفة، ولما وصل إليها أخذ يتلمس حولها باحثاً جادّاً بالبحث، فوجد لباس أميرة وتاجاً مرصعاً وحُليّاً متنوعة.. فأخذه العجب لصدق أقوالها وهو يلملم تلك الحوائج.

عاد الأمير خلدون أدراجَه ليجد الحية بانتظاره، فمال إليها والتقطها دون
وجل أو تردد، ووضعها في خرج حصانه باعتبار أنّ ذلك يدخل في نطاق دوامه اللامعقول والمغامرة.

بدأ الليل يُرخي سدولَه وخلدون ما زال مشوّش التفكير لا يعرف ماذا يفعل، وأخذ يفكر بصوتٍ عال فسمع الإجابة من الحية، حينما دعته إلى

المغادرة باعتبار أن المشبوهين الأربعة قد يأتون في أية لحظة، فأخبرها بأنه ليس معنياً بالمشبوهين وما يفعلونه، وأنه بصدد شراء راحلة لحمل الأمتعة، ووجهته في الوقت الحاضر لا تتعدى مكاناً يوجد فيه بائع رواحل ولم تر الحية بداً من توجيهه إلى المكان المطلوب، ونال بغيته.

نام خلدون تلك الليلة في مدينة القوارير بأحد خاناتها، وتجول في النهار بأسواقها، وكانت الحية التي ترافقه في جيب سترته تشاهِد مدينتَها التي غادرتْها منذ شهر، وبقي على ذلك ثلاثةَ أيام ينتظر التحوُّلَ المنشود للحية ومدى صدقِها وصدق مَنْ سَحَرها. ومرتِ الساعات الأخيرةُ متثاقلة وهو في غرفته في الخان، ولما أزِفَ الموعد خرجت الحية من جيب سترة خلدون، وتمنت أن تتحول إلى عصفورة طنانة، وفي لحظات شاهد خلدون ما أطار صوابَه وأثلجَ صدره وتركه يهلّل فرحاً، فقد تم انقلاب الحية دون جهد يذكر إلى عصفورة طنانة صغيرة، وسمع ضِحكة الأميرة من العصفورة.. وهي تحمد الله على تحولها، وكان فرح الأمير عظيم بذلك، وأخذ العصفورةَ بين يديه يمررها على صدره مردداً حمده وشكره الله لهذا التحول، ورأى فيه دعماً لمهمته.

وفي اليوم التالي أفاق خلدون على صوت العصفورة تناشده العودةَ إلى البيت المهجور، وكَشْفِ ملابسات المشبوهين وما يفعلون، فخَوْفُها على قومها من هؤلاء قد بلغ مداه، حتى إن تفكيرها لم يتوقف عن ذلك طوال الليل، وأنها لن تتوانى عن إطاعته في أي شيء يطلبه إنْ لبَّى رغبتَها تلك، وهي تحوم حول وجهه وصوتُ أجنحتها الطنانة مع كلامها تطرُق أذنيه، ووجد أنه لا مناصَ من تنفيذ رغبتها لتطمئن على أهلها، وتكونَ رفيق رحلتِه الطويلةِ بعد ذلك.

قضى خلدون يومَه الرابع في مدينة القوارير يحضّر نفسَه ورواحلَه للمرحلة القادمة، ولما قضى النهارُ ومالت الشمسُ نحو المغيب، اتجه بحصانه والعصفورةُ الطنانةُ تلازمه حتى اقترب من البِركة، وعقد حصانه قربَها واتجه على أقدامه نحو البيت المهجور يتنقل بين الأشجار، بينما كانت العصفورة تراقب المنطقة من الأعلى

حتى وصلا البيت المهجور، ولما لم يجدا أحداً اقتربا ووصلا إلى أبوابه ونوافذه، واستمرا يبحثان في أرجائه لإيجادِ مدخلٍ ينفُذان منه إلى داخله، ولما أعيتهم الحيلة جلسا يتدارسان الأمر ولم يتوصلا إلى حلّ، وكان الكسر والخلع آخرَ ما يفكران به، ثم اقترحت العصفورة التحوّلَ إلى دودة ثم تقوم بالنفاذ من ثقبٍ مهما يكن صغيراً إلى الداخل، وتبقى بالداخل مدةَ بقائهم لهذه الليلة، وتشرحُ لخلدون الذي ينتظرها خارجاً ما يدور داخلَ البيت في تلك الليلة.

راقت الفكرة لخلدون ووجدها حلاً مناسباً، وبدأا بتنفيذ ما عزما عليه عندما حطَّت العصفورةُ على كف خلدون وتمنت تحولها إلى دودة من نوع «أمِّ أربعةٍ وأربعين» وشاهد خلدون تحوُّلَ الأميرة والتعجبَ والاستغرابُ يرتسمان على وجهه، ثم اقترب من بابٍ فرعيٍ للمنزل المهجور ووضع كفه قرب قُفْلِه، فأخذت الدودة طريقَها تسعى داخل ثقب مفتاح القُفل لتستقر فيه، بينما استقر خلدون فوقَ شجرةٍ قريبة بعد أن هيأ لنفسه مكاناً مستقراً على أغصانها، وقد لفَّ نفسَه بعباءته السوداء منتظراً اختفاء شمس النهار، وما إن أخذت عتمةُ الليل تزحفُ بظلامها حتى ظهر السحرةُ الأربعة يجرون عدداً من الرواحل المحمّلة بأكياسٍ وصناديقَ مُقفلة، وشاهد خلدون من عليائه كيف استخدم السحرةُ طريقتهم في فتح الباب الرئيسي للمنزل المهجور، عندما مد أحدُهم أصابع يده نحو قُفله فخرج منها شررٌ تطايرَ بألوانٍ مختلفة له صوت أَجَشّ، واستجاب على أثره قُفل الباب، ورأى خلدون البابَ وقد فغر فاه ليستقبل القادمين مع رواحلهم واختفَوْا داخل المنزل وأغلقوا الباب دونهم وعاد كما كان، وبعد وقت قصير شاهد انبعاث نورٍ خافتٍ داخل المنزل، تبعه صوتٌ له شخيرٌ وإشعاعات ضوئية بألوان مختلفة يغلِب عليها اللون الأرزق، واستمر ذلك حتى قارب الليل منتصفَه، بينما كان البرد في الخارج ينخر عظامه، والقلقُ على مصير دودته يؤرّقه، وفجأة توقف الصوت داخل المنزل، وتبعه توقفُ ما نجمَ عن الصمت من إشعاعات، ثم شاهد اختفاءَ النور الخافت، وتبعه خروجُ هؤلاء مع رواحلهم من باب المنزل، وما إن استكملوا الخروج حتى شاهد باب خروجهم يجري إغلاقه بطريقة فتحه نفسها فعرف بأن باب

المنزل مرصود، ولا يمكن فتحُه إلا إذا استعان بأمثالهم. فتنفس الصعداءَ لدى ابتعادهم ووجد أن الوقت قد حان ليعرف ما حل بدودته، وما يجري بالداخل إذا بقيت دودتُه على قيد الحياة.

وهبط هبوطاً سريعاً من على الشجرة، واقترب من الباب الجانبي للمنزل، ووضع فمَه على قُفله طالباً من دودته إسماعَه صوتَها والعودةَ إليه، وكان فرحُه شديداً عندما سمع صوتَها الذي يقترب رويداً رويداً من فتحةِ قُفل الباب، ثم شاهد بروزَها منه فأخذها بين يديه ينفخ عليها من نَفَسهِ الحارّ، فسمع صوتَها مع ضِحكة ناعمة تدعوه إلى التوقف عن فعل ما يفعل لأنها بخير، وشاهد تحول عودتها إلى عصفورة طنانة بنشاطها المعهود، ثم تركت يَدَه قائلة: إنها ستتبع قافلة السحرة لترى ماذا سيفعلون بما أنجزوه، ولن تغيب كثيراً وستلتقي به في الخان، حاول خلدون ثَنْيَ العصفورةِ عما صممت على فعله، ولما لم يُفلح دعا لها بالتوفيق.

مرت ساعاتٌ ثقيلة على خلدون وهو في غرفته بالخان ينتظر عودةَ العصفورة، وقد غادره النومُ وعيونُه مسلّطةٌ على باب الغرفة الذي تعمَّد تركه مفتوحاً ونوافذها مشرعة، حتى بدأ ضوءُ النهار يُطل بنوره، فزاد قلقُه وتَرَك فراشه رافعاً كفيه يدعو الله إنقاذ عصفورته، وشكوكه تحوم حول تعثرها في البحث مع الليل المُدْلهمّ.

وبينما هو على تلك الحال من القلق والوسواس والتضرع إلى الله سمع صوت طنين عصفورته يقترب من نافذة الغرفة، فهبّ من رُقادِهِ وقد أخذتْه الحماسةُ ينادي بشغف مشوب بحرارةِ اللقاء عصفورتَه الغالية، وسمع صوتَها والحزنُ والتعبُ قد نالا من حِبالِهِ تنشد الراحة والأمان في جيب سترته، وما إن وقفت على يديه حتى ضمّها بحرارة إلى صدره يبثها شوقَه وخوفَه عليها، وقد أدركت ذلك في تصرفاته العفويةِ وعينيه وقد جفاها النوم، فأقبلت تدغدغ وجهَه ثم استقرت في جيب سترته تدعوه إلى النوم حتى يُقبلَ النهار، ويُقبلَ معه ما يحتاجانه من همة ونشاط.

أَوَى خلدون إلى الفراش ونام نوماً عميقاً، ولم يَصْحُ إلا والظهرُ يُطلّ برأسه وصوت المؤذّن يتعالى في أرجائه، فانتفض واقفاً من فراشه وشاهد الشمسَ تجوب الغرفة، وقد طالت أشعتُها أركانها القصية، وبينما كان يتجهز للرحيل سمع صوت العصفورة تسأله عما يَبغيه من عمله، فرد بأنه على موعد مع الرحيل، وأن وجودَه بمدينة القوارير لا مبرِّرَ له، وأَذْرُعُ الشيطان في أرجاء المعمورة تسرح وتمرح، والسيفُ يقبع في كهفِ المردةِ في بلاده الهِيم، وهو وحده القادرُ على إزالة ما تعانيه البشريةُ من جبروت الشيطان وسَحَرته، وما أنتِ إلا واحدةٌ من الذين يكْتَوُون بنار سحرهم، ولولا إرادة الله لكنْتِ الآن ما زلْتِ في القارورة تنتظرين النهايةَ المحتومةَ بالموت جوعاً وعطشاً..

حينها خرجت العصفورةُ من جيب مخلِّصها وسألته مَن يكون ؟ وماذا يريد؟ وهل هو من وضعتْهُ الأقدارُ لتخليص البشرية؟ وبعمله المرتقَب تتحرر هي أيضاً من ربقة السحر وتعود أميرةً كما كانت؟ فرد بأن هذا ما سيكون، وشرح لها ما كان من أبيه ورؤيتِهِ الشيطانَ مجرداً واضحاً كلَّ الوضوح، ورأْيَ العلماء والشيوخ، وقصةَ السيف المصنوع من قِبلِ سبعةٍ من رجالِ الله، وكيف تمكَّنَ الشيطانُ من إخفائه في ذلك الكهف القصيّ..

رأى خلدون من العصفورة ما أعاد ثقتَه إلى نفسه، عندما خرجت العصفورةُ عن طورها تشكر الله والقدَرَ الذي منّ عليها وخصَّها بأن تكون مساهِمةً بتلك المهمة الجليلة، ودعته للاستمرار بمهمته، وعدم الانحرافِ أو التواني، وستكون له كما وعدتْ لدَى إخراجها من القارورة، ولما همّا بالخروج من الغرفة سأل خلدون عصفورتَه عن مشاهداتها ليلةَ أمس؟ فردت بأن ذلك لا يخرُج عما يفعله الشيطانُ بمملكة أبيك، ولكنّ ما يفعله السحرةُ الأربعة يفوق ذلك بكثير، فقد رأيتُ منهم ما أضاع صوابي وأبقاني في حَيرة.. فقد تم حَقْنُ ما أحضروه من فواكهَ وخضارٍ إلى البيت المهجور بموادَ تم صنعُها بِقْدرٍ كبيرٍ فوق نار الحقد والطمع والانحراف، ثم تتبَّعْتُهم حتى حطّواً رحالَهم في سوق المدينة الخضراء، ثم عدتُ أدراجي وعرَّجْتُ في

طريقي على قصر والدي في المدينة التي نحن فيها مدينةِ القوارير، ولمست الحزنَ في هذا القصر وعدت أدراجي إليك.

جلس خلدون على الأريكة ثم أطرق يفكر للحظات، ثم سأل العصفورةَ عن المدينة الخضراء، وبُعد المسافة التي تفصلهما عن مكان وجودها، فحثَّتْه على تجاوز ذلك وحَصْرِ تفكيره في مهمته التي هي أجلُّ وأشمل، ونفعُها يتجاوز المدينة الخضراء وغيرَها من المدن المنكوبة بهؤلاء ولكنّ إصرار خلدون دفع العصفورة لإخباره بمكان وجود المدينة والمسافة التي تفصلهما عنها.

خرج خلدون بقافلته ينشَطُ للوصول إلى المدينة الخضراء قبل إغلاق أبوابها، فوصل إليها قبل حلول الظلام، ودخلها باحثاً في أرجائها عن مكان يقيم فيه، ولما تم له ما أراد اتّجه ودخل أحدَ مطاعمها لينال عشاءه، وما إنْ جلس حتى سمع صوتَ عصفورته التي كانت تسرِقُ النظرَ من جيب سترته تحذّره من الأكل في هذا المطعم لأن متصدر المطعم هو أحد السَحَرة الأربعة، وإن ما يحويه المطعمُ من أطعمة تدخل في نطاق الأطعمة المعالَجة في البيت المهجور، وأن نتائج تناولها غير محمودة العواقب، واقترحت عليه تغييرَ المطعم أو البقاءَ دون طعام ما دام في المدينة الخضراء، والتجولَ في أرجائها والتعرفَ على أسواقِها وأزقتِها وسكانِها وكشفَ ما يفعله سَحَرتُها بهؤلاء، والمغادرةَ مع فتح أبوابها في الصباح.

راقت الفكرةُ لخلدون الذي كانت الوساوسُ والشكوكُ قد بدأت تنتابُه، وغادر المطعمَ بادئاً التجولَ في حيٍّ تكثر فيه أماكنُ اللهو فلفت نظرَهُ الفجورُ والمجونُ بالجملة، فالنساءُ شبهُ عاريات يقارِعَنْ الخمر برفقة الرجال، وبعضُهن على قارعةِ الطريق، والحاناتُ المنتشرة تعجُّ بشاربي الخمر والمنازلُ مشرعةٌ أبوابُها، والصِّبْيةُ من الجنسين يعيثون فساداً، وينالون من الجميع وخاصةٌ كبارَ السن بأشكال ينْدَى لها الجبين. واستمر خلدون في سَيْره متحاشياً الجميع حتى فرغ منه، ودخل سوقاً تجارياً مجاوراً، وشاهد ما شاهد في حي الملاهي بفارقٍ يسير هو رؤيتُه بعضاً من النسوة يتجولْن وهن يرتدين الحجاب، فجالت برأسه

فكرةُ التعرف على إحداهن من كبيراتِ السن اللائي كنَّ يتسوّقْنَ من بائعِ خيوطٍ صوفية، وبادَرها بالسؤال عما تفعله بتلك الخيوط، فشاهد نظراتِها الفاحصةَ ترمُقه لبرهة ثم سألته إنْ كان غريباً عن الديار؟ فأجابها بأنه تاجر من بلاد بعيدة، ساقته تجارته إلى تلك الديار ووصلها مساءَ هذا اليوم، ثم سألتْه إن كان قد تناول من طعام مطاعمها؟ فرد بأن ذلك
لم يحصل بعد. حينها دَعَتْه لزيارة ذوِيها ونَيْلِ طعامهم، وحذَّرتُه من طعام المدينة
وما تحويه...

ولم يَطُل الوقت حتى رافق خلدون العجوزَ إلى منزلٍ متواضع في حي فقير ليس ببعيد عن السوق، ودخله ليجدَ رجالَ الأسرة جميعاً يعملون داخل البيت بصناعة السجاد، وتعمل نساؤها بصناعة الألبسة، وخرج من بينهم ربُّ الأسرة مرحّباً، واهتمّت الأسرة بالضيف، وزاد اهتمامُها عندما علموا بأنه لم يَذُق طعام مطاعم المدينة.

وبعد تناول خلدون طعامَه توارَدَ إلى ذهنه أسئلةٌ كثيرة يرغَبُ بأن يسمع إجاباتٍ محددةً عنها من تلك الأسرة المضيافة. واستمع من مُضيفيه إلى أجوبةٍ كان أبرزُها وصفَهم لمدينتهم، التي كانت هادئةً وادعة شعارُها الحشمة تحكمها القِيَمُ والأخلاق، حتى جاءها نفرٌ من الغرباء سيطروا عليها وقلبوا حالها، ففي كل يوم يمر يزداد من يخرجون عن الأخلاق من أهلها حتى تقلص عدد الأسر المحافظة، والتي بقي منها مالت إلى الانزواء وعدم الاختلاط، والعملِ داخل بيوتهم بأعمال صناعية تفتقر إليها المدينة كافتقارها للحشمة، وتبيع ما تصنعه داخل بيوتها في السوق، وتشتري ما تحتاجه من أطعمةٍ من خارج سوق المدينة لأن الشكوك بَتَردّي الأخلاق مَرَدُّه نوعٌ الأطعمة المتوفرة، وما ينطبق على المدينة داخلَ سورها لا ينطبق على ريفها وضواحيها، لأن ما يحصل مرتبط بمن يعتمد في طعامه على سوق المدينة فقط.

شكر خلدونٍ مضيفيه وغادرهم بعد أن وضع كيسَ نقودٍ تحت الوسادة، متضمناً عبارة الهدية. وفي الصباح الباكر غادر خلدون المدينةَ الخضراء نحو الشمال، وقلْبُه يتفطر حزناً وألماً على أهل تلك المدينة المنكوبة بالضياع، رافعاً في الوقت نفسه قيمةَ عمله الهادفِ إلى تحرير مَن شملهم هذا الموج العارم، واستمر في سَيْره حتى قاربت الشمس على المغيب، فارتأى البحثَ عن يَنبوعِ الشيخ بدر، الموصوف في خريطة الشيخ ضياء الدين المزَّود بها في المكان نفسه، ولم يطُل بحثه حين سمع خرير مائِه في الجوار، فأقام مخيَّمَه قُرْبَه حتى الصباح، وشاهد توارُدَ الرعاة مع أغنامهم، ونال ما يحتاجه من ضروعها ومشتقاته، وبينما كان يهم بالمغادرة ورد إلى الينبوع رجل طاعن في السن يدفع أمامه بضعَ غنمات، ولم يلبث أن سلّم سلام المسلمين، وجلس برهة ثم بدأ يقرأ القرآن، مما دفع خلدون إلى التريث والجلوس، تاركاً لنفسه العِنانَ والاستماعَ دون أن يأْبَهَ لتقدم النهار، وطال ذلك حتى قاربت الشمس على المغيب، فتوقف الرجل عن القراءة وحمل عصاه، وما إن همّ بالرحيل حتى أوقفه خلدون وطلب منه البقاء في مخيمه حتى الصباح، وإسماعه خلالها شيئاً من الذكر الحكيم وسيُجزل له العطاء. فرد الرجل بأنه لا عطاءَ إلا عطاءُ الله، فرد خلدون بأن الله دفعه للعطاء، وأنه مما أعطاه الله. فقال الرجل: هل هذا ناتجُ تجارتك؟ فرد خلدون بأنه ليس بتاجر. فسأله عن سبب كثرة رواحله إن لم يكن تاجراً؟.. فرد خلدون بأن ما يَهُمُّ به يتطلب ذلك، وأنه ليس بتاجر ولا تويجر، ولا عالم ولا معلّم، وإنما هو قاض ومنفّذ لإرادة الله في خلقٍ أساؤوا التقدير وأفسدوا في الأرض، والأمرُ في يد خالقِ الخلقِ يَهَبُ القوة لمن يشاء لقطع دابر الشر على مر العصور والأزمان، فرد الشيخ إذن أنت يا ولدي مَن اختاره الله لقطع دابر الشر بهذا الزمان.. فرد خلدون بأنّ عِلمَ ذلك عند رب العالمين، فقال الشيخ: يا ولدي هل أنت مدركٌ ما سيواجهك؟ هل أنت على الطريق الصحيح؟ فقال خلدون: إن ذلك يعود إلى ما أحمله في جعبتي.

حينها هنأ الشيخ خلدون على تصميمه وأَعْلمَه بأن ذلك الجبلَ يُخف وراءه ما يساهم في نجاح مهمته، وينقلُه خطوةً جديرةً بالاهتمام

إلى الأمام فهناك ستواجُه بحيرةٌ عاتية تسمى البحيرةَ المجنونة، تضمُّ في جوفها سكان مدينةٍ بكاملها، وفي قعرها القوسُ العجيبُ وكنانتُه التي تحوي عَشَرة من الأسهم، ولا سبيلَ للوقوف في وجه مخلوقاتِ الله الأقوياءِ من مرَدَةٍ ورجالٍ أشداءَ إلا بها، وكي تحصل على تلك الغنيمة فإنّ عليك اتّباعَ ما أرويه لك.. فالبحيرة يا ولدي مياهها سوداء، والغوص فيها محذور، وعلى شاطئها ثلاثة مجاذيف، فما إن تمسك بالمجذاف الأول حتى تجد أمامَ ناظريك ممراً، والأفضلُ أن تبدأ مهمتَك مع ظهور الشمس.

أوقف خلدون وسأله قبل أن يغادره أن يسمع منه قصة البحيرةِ وسكانِها، فرد الشيخ قائلاً: يا ولدي لقد ابتُليَ أهل المدينة بعينِ الحسد بينهم، فاستغلّها الشيطان وأوقدها حتى أصبحت وبالاً عليهم، ثم حوّلها إلى قوةٍ تمكنت من تحويلِ المدينة إلى بحيرةٍ وسكانِها إلى أسماك، والعينُ مقيمةٌ على قِمّة جبلٍ عالٍ تنتظر من يفقؤها، والوصول إليها مستحيل.

عاد خلدون إلى مخيَّمه وأعاد تثبيتَه ونام في مكان نومه بالأمس، ولما أصبح الصباح استأنف سيرَه مسترشداً بالاتّجاه الذي أشار إليه الشيخ، والذي لا يتعارض مع خارطة الشيخ ضياء الدين، واجتاز الجبل وتراءت له بحيرة كبيرة بمياهها السوداء المتلاطمة، فعبر الجبل ووصل إلى البحيرة وشاهد سمكاً كثيفاً يجوب أرجاءها، كما شاهد المجاذيف الثلاثة على حافتها.

فأقام مخيَّمه بالقرب منها تنتابه الوساوس والاحتمالات وهو يحسِبُ لكلِ خطوة حسابَها، يدفعه الأمل وإرادةُ الله لتخليص البشرية. ونام تلك الليلةَ نوماً متقطعاً مضطرباً قلقعاً، وبعد أن تجاوز الليل منتصفَه قام يحي الهزيعَ الأخيرَ من الليل بالصلاة والدعاء، وفيما هو على ذلك سمع فجأة أصوات بكاءٍ ونحيب مع انبلاج الفجر، وكأنه في مآتم متعددة وفي أماكن متعددة، فقام منتصباً يجول ببصره مستنفراً حواسّه حتى عرَفَ مصدرَ تلك الأصوات، وحصرها في تلك البحيرة المجنونة، فهدأت نفسه ونال طعامه واتجه مع خيوط ضوء النهار نحو

البحيرة متوشحاً سيفه، وتقدم حذراً من المجداف الأول وقبض على ناصيته، بينما كان لسانُه وقلبُه لا يفتُران عن ترديد بعض من آيات الله، فشاهد على أثر ذلك انفلاقَ البحيرة وظهورَ مدخلٍ مدرَّجٍ واسع إلى أسفل، فتريث قليلاً قبل أن يجازف، وما إنْ لامستْ قدماه أحجارَه حتى بدأ ينفُث من داخله دخاناً كثيفاً مترافقاً بأصواتٍ مدويةٍ متدرجةٍ في الصعود تصُمُّ الآذان، ثم رافقها أزيزٌ قويٌّ مجلجِلٌ تتقطَّع لهوله نياطُ القلوب، وتخرقُ لشدته طبلاتِ الآذان، فما كان من خلدون إلا أن اختار الاندفاعَ والولوجَ داخل النفق، مخترقاً الدخان ومحاولاً سدّ أذنيه وهو يتلمس طريقه بسيفه، لانعدام الرؤية بسبب ضباب الدخان، وكلما أوغل داخل النفق ضعُف اندفاعُ الدخان والصوتُ المنبعثُ منه واتّضحت الرؤية أمامّه حتى وصل نهايةَ الدرج، واتّضحت الصورة بجلاء عندما شاهد دهليزاً مُناراً بفُرجة واسعة تتسع لعربةٍ بخيولها، وجال ببصره داخلَ النفق ولم يرَ نهايةُ له، ولما كانت بغيتُه في نهاية النفق والوقتُ يقاربُ نهايةَ نهار هذا اليوم، فقد وجد أنْ لا سبيلَ أمامه سوى الإسراعِ قَدْرَ الإمكان وهو يمنيّ النفس بأنْ لا تظهرَ أمامَه مُعوّقات، ولكنّ فألَه خاب عندما بدأ يسمع مع كل خطوة يخطوها أصواتاً لحيوانات مفترسة حوله، وبين الحين والآخر تظهر له طيور بمناقيرَ تطول وتقصر، وهو يصدها بسيفه محاولاً شق طريقه بين جموعها، وكلما انتهى من دهليز وجد أمامه دهليزاً أطول وأضيق، حتى أنهكه المسير وشعر بالإعياء، فاتّكأ على سيفه بغية الاستراحةِ قليلاً، وفي هذا الوقت هبط عليه ثلاثة رجالٍ عراةٍ بعضلاتهم المفتولة ولم يجدوا عناءً في طرحه أرضاً وإيثاقه جيداً، ثم أدخلوه مكان بغيته وشاهد القوسَ يُنير المكان بلمعانه، ثم أوثقوه قبالةَ ذلك القوس من يديه ورجليه بأربع حلقات أرضية وغادروا المكان.

التفت خلدون حوله بعد مغادرة مكبّلِيه فوجد أقرانَه الذي استهوتهم قدرةُ القوس ودخلوا قبله، هياكلُ عظميةً مكبّلةً بالحلقات، وأسلحتُها وألبستُها متناثرة حولها، فعرف نهايته واستسلم للقدر وفمُه لا يفترُ عن ذكر الله، وما إنْ هدأت الأصوات وساد الصمت والسكون أرجاءَ المكان حتى شعر بشيء يتحرك في جيب سترته، فعرف بأنه ليس

وحده في المكان، وأن عصفورته التي نسيها تماماً في خضم ما حدث له قد أطلّتْ برأسها تجوب بناظريها المكان، فلمست سعادتَه عندما أشار إليها بشفتيه بعدم التكلم، ثم أومأ إليها برأسه نحو قيوده ونَظَرهُ يجوب الأنحاء، وشاهدها تحوم حول قيوده وتتفحص قدرتها، وكانت مجردَ حبالٍ معقودة بين أطرافها وحلقاتٍ مثبتةٍ في أرض القاعة، وساقها تفكيرُها لإيجاد سبيلٍ لفكّ قيود خلدون، فقد ارتأت تحويلَ نفسها إلى حيوانٍ قاضم، ولما لم يَرُق لها ذلك وجدت الحل بتحويل نفسها إلى قرد، وما إنْ تم لها التحوُّل حتى قامت باستلال سيف من السيوف المنتشرة في القاعة، وقامت بهدوء واتّزان كبيرين بحزّ تلك الحبال حتى أطلقت يدي خلدون أمام بصره وابتسامته، ولم تُكملْ ما بدأته لأن الخوف قد تملكها، بل قامت بتحويل نفسها مرة أخرى إلى عصفورة طنانة، وعادت واختبأت في جيب سترته تاركةً خلدون يُكمل ما بدأته بتحرير نفسه.

تحرك خلدون بهدوء نحو مكان القوس ونَزَعه من مكانه وهيّأه بين يديه، وأخرج من الكِنانة التي علّقَها على كتفه سهماً وجعله في القوس، ثم توجه عائداً نحو الدهليز، وفي أثناء ذلك أشار إلى العصفورة بأن تقومَ بالتواري خلف إحدى أذنيه بغية المراقبة والتحذير، ولمس تحرك العصفورة بهدوءِ الخائف سالكةً طريقاً مختصرةً ما بين جيب سترته وياقتها وأندسّت في تلك الياقة قربّ أذنيه، وأوعزت له بالتحرُّك عندما لامس منقارُها شحمة أذنه، فتقدم بحذر شديد مستنفراً حواسه، والخوف والقلقُ يساورانه بكل خطوة يخطوها، فالدهليز ضيق، والخروج منه بعيد المنال، والأخطار تلفه من كل جانب، وما كان يُعزيّه ويضعُ السكينة في قلبه هو أن الله معه، وإرادته تعالى هي التي ستسود، والعصفورةُ وضعَها الله في طريقه لتكون عوناً وعزاءً في رحلته.

وبعد وقت غير قليل خرج خلدون من الدهليز الضيق ليدخل دهليزاً جديداً أكثر اتّساعاً، وأثناء ذلك سمع صوت العصفورة تحذّره، فالتفت إلى الخلف ليرى العراة الثلاثة يحاولون الاقتراب والانقضاض عليه من الخلف قبل أن ينتبه، ولكن صوت العصفورة الذي أفزعهم

واربَكَهم قد ترك لخلدون الفرصة، وأطلق سهمه الذي خرج من قوسه ينفث من خلفه شهاباً نارياً مدوياً، فجند لَهم ثلاثتهم وحوّلهم إلى ركام محروق، وبقي السّهم في أرض الدهليز، فالتقطه خلدون وهيأه مرة أخرى على قوسه جاهزاً للإطلاق، وقد لفه العَجَب والثقةُ والاعتزاز بالقدرة الساحقة لهذا السلاح، وفمُه لا يفتر عن شكر الخالق وحَمْدِه.

تركتْ تلك العمليةُ في نفس خلدون وعصفورتِه الثقةَ بذلك السلاح الرهيب، وعَرَفوا أن الله قد منّ عليهما بالنصر والخروج سالمين، وشاهدا بعدها كثيراً من المُعوّقات التي كانت أثناء دخولهما ـ قد انكفأت، كما شاهدا الحيواناتِ المفترسة منكفئةً هي أيضاً، والطيورَ بمناقيرها منزوية تَنْشُد السلامه، ولم يهدأ بالُ خلدون ولا ارتاحت نفسُه إلا بعد أن اجتاز الممر الأخيرَ الواصلَ إلى الدرج، وتسَلَّقَه بأقصى سرعة وخرج من البحيرة سالماً يحمل قوساً وكنانة نادرتين، وأثناء ذلك كان يسمع الأصوات التي تصدر من البحيرة أحسنَ حالاً من الأصوات التي سمعها أثناء الدخول، ووجد أمتعتَه وخيولَه بانتظاره قرب البحيرة، فامتطى جواده ينشدُ الابتعادَ عن البحيرة وما تحويه، وقلبُه ما زال يخفِق من هول ما رأى وما سمع.

سار خلدون بالطريق الموضَّح على خريطة ضياء الدين نحو مدينة العناقيد يومين وليلتين، يسير في النهار ويقيم مخيمَه ليلاً، وفي اليوم الثالث تراءت له المدينةُ ببساتينها المترامية، وأبنيتها وقلعتها المقامة على رابية في وسطها، وكلما اقترب اتضحت له معالمها، وهو يمتّع نظرَه برؤية بساتينها، ولما دخلها وجدها أشباحَ مدينةٍ بدُورها الهرمة، وأزقتها الخرِبة، وسوقها الخالي من النشاط السكاني المعهود، فلا مطاعم ولا خانات، والحوانيت المتناثرة ينقصها كثير من الأدوات التي تعبر عن وجودها.. ولما كان يرغب في الإقامة لبضعة أيام لتحضير نفسه ورواحله للاستمرار في رحلته، فقد بدأ يبحث عن الخان ليأكل فيه وينام وينعِلَ رواحله، وطال بحثُه دون جدوى، لأن مَن قابلهم إما كبارُ السن لا يفقهون ما يقول، أو نسوةٌ بغاية الحجاب. حتى وصل ساحة المدينة فوجد صرحاً محروساً من الجنود، وهذا الصرح بُني على أسس جميلة، تحفُّه الأحجار المنسقة، وأحواض الورود وفي

وسطه مِقبضٌ لسيف مركوزٍ إلى نصفه في الأرض، ولم يجد لوحة ما تعبر عما يحويه ذلك الصرح، فتجاوزه إلى شارع آخر في النصف الثاني للمدينة، فشاهد شاباً مقبلاً لم يتوار عند رؤيته، بل استمر بالمسير حتى التقاه، وبادره خلدون بالسلام فرد الشاب السلام ووجهُهُ ينم عن التعجب والاستغراب، وسأله خلدون عن مكانٍ يأوي إليه مع رواحله ليوم أو يومين، فرد الشاب وسأله إنْ كان من سكان الجبال؟ فرد أنه من بلاد بعيدة ومتجهٌ إلى بلاد أبعد، وهو بصدد الاستراحة ونيلِ حاجةِ رحلته من المؤونة، فرد الشاب وقد زاد من تعجبه من كيفية وصوله إلى هذه المدينة دون أن يعترضه أحد من سكان الجبال، فرد سائلاً عما يعنيه؟ فأجاب الشاب بأن سكان الجبال مسيطرون على طرقات المنطقة، والسؤال كيف أتيح لك المرور عبرهم وأنت ما أنت عليه من دوابَّ وأمتعةٍ وأنت لست منهم، دون أن ينالك أذاهم، فالأمر في غاية الحَيرة، ولكنك الآن وقد دخلت المدينة سالماً فلن تخرج كذلك، فعيونهم حتماً تتابع حركاتك أينما تحركت وكيفما عملت، فإن كان لا بدَّ من خروج فلا أملَ لك بالخروج والاحتفاظ بهذا الكمّ الذي أراه معك.

أطرق خلدون يفكر، ثم توجه إلى سامعه يسأله عن الحل، فقال الشاب إني أبحث عن طريقة تُخرجك مما أنت فيه مع الاحتفاظ بما تملك، وذلك بأن تتوارى مع قافلتك في مكان أظن أنه آمن قبل الليل، أو أن يفعل الله ما يشاء، فرد خلدون بحِدة: هل هم قَدَرٌ محتوم؟ أليس هناك مَن يوقفهم عند حدهم؟ فرد الشاب: ما دام سيفُ الرحمة لا يخرج من مكمنه، وجنودُ الملك في قلعتهم لا يحرّكون ساكناً، فلن يَقوى أحد على فعل شيء.

تنبه خلدون للسببين الواردين بمقولة الشاب، وسأله عما يقصده بسيف الرحمة هذا؟ أهو قول مجرد أم أن هناك سيفاً حقيقاً اسمه سيف الرحمة؟ وماذا تقصد بجنود الملك؟ فرد الشاب ساخراً: فمنذ دخولي هذه المدينة وأنا في حَيرة من أمري... فردّ خلدون مستفسراً عن وضع الشاب وهل هو أيضاً عابرُ سبيل؟ فرد الشاب أنا أيضاً مثلك، جئت المدينة منذ عام هارباً من ظلم عشيرتي لألقى مصيراً أسوأ، عندما واجهت لدى دخولي أطراف المدينة سكانَ الجبال، وخسرت راحلتي

وأمتعتي، ونجوت بجلدي مجتازاً البساتين، ومختبئاً في منزلِ عجوزٍ تقي، وهو حتى الآن يتحمل مسؤولية إيوائي مقابلَ خدمتي له في داره وفي متجره، ولولا اسمي ما كان لي نصيب في البقاء في هذه المدينة ولا كان أحد قد تحمل مسؤولية إيوائي.

وقبل أن أروي لك ما ترغب به، عليك أولاً الذهابُ والتواري في المكان الموقّت المُومى إليه أنت ورواحلك قبل حلول الظلام لتأوي إليه، وأنا أعرف هذا المكان وهو منزل خرِب لا سكانَ فيه، ولكنّ له بابٌ يمكن إيصاده من الداخل.

تبع خلدون الشاب يجُرُّ رواحله والأفكارُ تتضارب في رأسه، والأسئلة التي
لا حلولَ لها تجد طريقها إلى فكره، حتى وصلا الخرابة ودخلا بابها ووجد كلَّ ما فيها آيلاً للسقوط، ففضّل خلدون البقاء في ساحتها مع رواحله وقام هو والشاب في تحريك الباب، وسمعا صرير مفاصله الصدئة، وما إن غادره الشاب حتى وضع خلدون مِسنَداً خشبياً خلف الباب ليكون مانعاً من فتحه، ثم أقام مخيَّمه والقلقُ على مصيره ومصير رحلته يساوره، وقد أخذ التعب والإرهاق منه كلَّ مأخذ، والأفكارُ المتضاربة تدق ناقوسَ الخطر وتضعُه في زاوية لا حلول فيها، ووجد في عبارة (الصباح رباح) حلاً آنيّاً يؤجّل بمقتضاها تلك الأفكار، ويترك لجسده العنان ليرتاح، وبعد أن توصل إلى هذا الرأي نام نوماً عميقاً.

صحا خلدون في الصباح على أصوات الطيور المتناجية والعصافير المرددة، ونال فطوره واعتنى برواحله، وأثناء ذلك سمع صوت أقدام تقترب، فقفز وخرج نحو الباب يسترق السمعَ والنظرَ ليجدَ الشابَّ يجّر وراءه بغلاً محمّلاً طعاماً له وعلفاً لرواحله، وكان ترحيبُه وشكرُه لهذا الشاب قد دفعه إلى عناقه، ثم أخرج من كيس نقوده بعضاً من القطع الذهبية ودسها في يده، فلاقى في ذلك استحسانَ الشاب وسعادتَه، ودُهش الشاب عندما عرف بأنه ذهب، وزادت ثقته بأنه سيجد لخلدون مكاناً لإقامته بين ظهراني أهل مدينة العناقيد، التي فقدت

منذ زمنٍ هذا المعدنَ الأصفر الرنّان الذي يستهوي النفوس كلها، ولِمَن يمتلكه الصدارةُ في أنحاء العالم كلها، فكيف في بلد تفتقده منذ زمن كمدينة العناقيد، ثم توارد إلى ذهن الشاب سؤالُ خلدون عن اسمه، ولما عرف بأنه لا صلةَ لاسمه بأسماء الأنبياء حزن وأطرق يفكر، ولكن خلدون لم يُمهله بل أصرّ على إنبائه بسبب تجهُّمه فأجاب والحسرةُ في نبَراته ـ بأن للاسم في هذا البلد صلةً بتحريرهم مما هم فيه، لو لم يكن اسمه محمداً لما نال رعايةَ وعنايةَ الشيخ رجب، ولَمَا نالَ احترامَ أهل المدينة، فالاعتقاد السائد بأن شاباً سيأتيهم من الشرق يحمل اسم نبي، يَلينُ لإرادته سيفُ الرحمة المنصوبُ في الساحة، ويتم تحريرُ المدينة من سلطانها الجائر. وحمايتُها من الغزاة سكانِ الجبال، فعلاماتهم كلها تتوافق مع قصة حياتي التي كنت فيها وحيداً لأبوين فقيرين، وكنت هاوياً للعلم ومحباً لمدرستي التي تبعد نصف ساعة سيراً على الأقدام عن قريتنا، وفيه كان يتجمع أبناء القرى المجاورة، وكانت لي مكانةٌ متقدمة لنبوغي المبكر وصدقي وأمانتي وحبي للجميع. هذا الكلام مدوَّن في أوراق مدرستي الشخصية، وكنت بعد عودتي من المدرسة أساعد والدي في الحقل، وأساعد والدتي في العناية بالحيوانات بعد عودتها من المرعى، وكانت حياتي تلك رغيدةً ومسليةً رغم الجهد الذي أصرفه، وطبعاً كبرتُ وكبرتْ معي أعبائي، وتقدم والدي في السن ولم يَطُل بي عهد سعادتي فقد فقدْتُ والدتي، وبفقِدها زادت أعبائي وخاصةً بعد أن تزوج والدي فتاة في سني، لم تكن مستعدة لأن تقوم بأعباء والدتي، بل كانت هي عبئاً فوقَ ما كان على عاتقي، وكلُّ ذلك كان سهلاً أمام أمرٍ يخصها، فقد كان لها أَخَوان شريران لا يتورعان عن فعل أي شيء لا يُقرُّه المجتمع، فهم في بحبوحةٍ دائمةٍ من العيش رغم أنهما لا يعملان، ولا يملكان شيئاً يخصهما كأرض زراعية أو حيوانات، وكنت أتجنبُهما للأسباب الآنفة الذكر، وحتى لاً أثير أية مشكلة تؤرق والدي رغم أن ذلك كان على حساب راحتي وأعصابي.

حتى كان يومٌ وكعادتي في كل صباح ذهبت لحلب بقرتي فلم أجدها بمربطها، ولم يَدُر بخَلَدي أبداً أني فقدتها، وإنما تبادر إلى ذهني

أن والدي غيّر مكان مربطها، ولكنّ ما حدث أني فقدت بقرتي وإلى الأبد، فأثار ذلك فيّ نوازع الانتقام، وصممت على إيجادها، وكان أولَ مكان بحثت فيه هو بيتُ ذوي زوجةِ والدي، وزاد من شكوكي غياب أخويْ زوجةِ والدي عن القرية على غير عادتهما، فأسمعتُ والدهما من الكلام ما أثاره، وهدد بإثارة ذلك مع والدي الذي طردني من البيت شرَّ طَردة إرضاءً لزوجته، وأقسمَ أن لا يتوانى عن القتل لو رآني بعد ذلك اليوم في بيته، ولم تنفعني تدخلات كبارِ أهل القرية، حتى إنهم نصحوني بترك القرية قبل حضور من اتهمْتُهُما بالسرقة لأنهما سيهُدِران دمي تبعاً لقسم والدي، ولم أجِد بُداً من ترك القرية بعد أن شعرت بأنه ليس لي فيها أحد، فوالدي هو آخر ما بقي لي في هذه القرية، حينها أسرجت فرسي وغادرت بيت والدي بعد أن حملت معي جميع أشيائي، ولما كان الوقت قد داهمني بالطريق وبدأ الليل يُرخي سدوله فقد جال بخاطري مكانٌ كنت آوي إليه عند ذهابي إلى المدرسة، وهو مغارةٌ مفتوحةٌ من طرفيها، فيه مكان أعَدّه الرعاة هرباً من برد الشتاء وعواصفه الثلجية، فادخلت إليها فرسي، ثم قمت بمحو آثاري وآثارِ فرسي على سبيل الاحتياط، ثم دفعت صخرتين وأغلقت بهما فتحة المغارة واستسلمت لنوم عميق.

استيقظت في الصباح على أصوات رجالٍ تتكلم في الخارج، فنظرت من شقوقٍ بين الصخور فلمحت مختارَ قريتنا وأخويْ زوجة والدي يتناقشون حول اقتسام مسروقاتٍ تمت في قريتنا والقرى المجاورة، وكانت بقرتي إحداها، ولما كان البحث جارياً عني وانقطعتْ آثاري قبل مئة متر من مكان وجودي، ولما لم يكونوا يعرفون بوجود المغارة، ولم يجدا أيَّ مكان يمكن أن أتوارى فيه حسْبَ مشاهداتهم ـ أطمأنّوا إلى ابتعادي بعيداً بينما أنا كامنٌ قربَهم أتشرف بمعرفة العصابة ورئيسها، وانتظرت عدداً من الساعات حتى أيقنتُ بأنهم غادروا المكان، وأنه في حال خروجي سأكون في أمان، حينها دفعت الحجارة التي أغلقت بها فتحة المغارة وخرجت لا ألوي على شيء، بعد أن وصلت إلى اقتناعٍ بأن القرية لفَظَتْني ولن أجد فيها الأمان وسِرتُ على غير هدى أندُب حظي العاثر حتى استقررت على

طريقٍ مطروقةٍ دون أن أعلم إلى أي مكان يؤدي، ولكنه حتماً سيؤدي إلى مكان مأهول.

واستمر سيري على هذا الطريق يومين وليلتين، وعند كل مساء كنت أجد مكاناً آوي إليه وفي اليوم الثالث تراءى لي عن بُعد قريةٌ مترامية الأطراف، فيها أبنيةٌ كثيرة تتوسطها قلعة كبيرة، وتحفها البساتين من كل جانب، ولم يَدُر بخَلَدي أبداً بأن تلك القرية السرقةُ فيها مشروعةٌ ودون رادع، إذ ما إنْ اجتزت تخومَها حتى فوجئت بأعداد من راكبي الخيول يلاحقونني، فتملّكني الخوف منهم فنهرْتُ فرسي التي استجابت مطلقةً قوائمها تسابق الريح، ولكن تلك المحاولة لم تُجْد نفعاً، فقد ظهر أمامي ما كان خلفي، ولم أجد بُدّاً من ترك راحلتي ودخول القرية الكبيرة مطلِقاً ساقيَّ للريح، وأولُ من شاهدت كان رجلاً مسناً رجوته حمايتي، فبادريني بالسؤال عن اسمي ومن أين جئت؟ وما إنْ سمع اسمي ووجهتي حتى اهتم بي اهتماماً لم أتوقعه، وأدخلني داراً واسعة رحبة يضمها سور، وبداخلها حديقة كبيرة تلعب فهي فتاة لا تتجاوز الخامسة من عمرها، وقد استقبلت الرجلَ المسن استقبالاً منقطع النظير، مما أثار تساؤلاتي وعرفتُ بأن حضورنا المبكرَ قد أفرحها، وعرفتُ أيضاً أنها حفيدتُه، وهي وحيدةٌ معه في المنزل الواسع، وحاولتْ بطرف خفي سؤالَ جدِّها عن هذا الضيف غير المنتظر... وقام الرجل بتخصيص غرفة لي واسعةٍ جميلة فيها ما يرغبه المقيم قائلاً: يا محمد أنت الآن كولدي، وهذه الغرفة ستقيم فيها ما دمتَ ترغب بذلك، ولك كلُّ الحرية بالعيش والتجول في أي ركن من هذا البيت، وأرى أن الأسئلة قد تزاحمت في رأسك، وعندما تكتمل هذه الأسئلة لديك فسأجيبك عنها بالتفصيل أما الآن فتعال معي لتحضير الطعام.

انطلقْتُ مع عمي رجب كما رغب أن أدعوَه أتعرف على أركان البيت ركناً ركناً حتى وصلنا إلى المطبخ، وعرّفني على أماكن الأدوات والمؤونة، واشعرني كأني في بيتي وبين أسرتي، وأعترف حقاً أني شعرت لأول مرة بعد وفاة والدتي بالاستقرار والراحة النفسية في هذه الدنيا العجيبة.

مرت بضعةُ أسابيع حينما دعيتُ لمرافقة عمي رجب إلى المخزن ومساعدتِه هناك، وكم كانت دهشتي عندما لمست انعدامَ التوازن السكاني في تلك المدينة فلم أر في شوارعها وأسواقها سوى العجائز من النساء والرجال، والقليلِ من الأطفال والنادرِ من الشباب، واعتدت على ذلك مع الأيام، وعلّمني عمي رجب طريقتهم في العلاقات حتى صرت أتعامل معهم كأني منهم، كما علمني طريقتهم في البيع والشراء والمقايضة وأسلوب التخزين، في مخزن البيع لا يوجد بضاعةٌ وإنما نماذج لبضائعَ متوفرةٍ في مكان آخر اسمه المستور، فما إن تُعقد صفقةٌ ما حتى يُجري نقلُها من المستور وتُسلم للشاري، والعكس صحيح إذ يجري أيضاً الشراء أو المقايضةُ من العارض، ويجري نقلُها وتخبئتها في المستور. وهذا المكان لا يعرفه سوى صاحبِ المخزن، وقد نلتُ شرف التعرف على المستور في الآونة الأخيرة، ولولا ذلك لما كنت قد حصلتَ أنت على حاجتك من المؤونة هذا اليوم، ولا أحد كان سيتعاون معك من أهل المدينة، فظهورُك في المدينة مُعافَى وقافلتُك سالمة تُدرجُك في صف الأعداء، وسبب تلك التعقيدات يعود إلى أن الأمانَ فيها معدوم، فالشّتاتُ كما يسمّونهم وهم الخارجون عن القانون اعتادوا على غَزْوها منذ أن فقَدَ حاكم المدينة القابعُ في قصره الآن سيفَ الرحمة المركوزَ في ساحة المدينة، منتظراً قدومَ شاب من الشرق يحمل اسم نبيّ، واستمر محمدٌ يحدّث خلدون قائلاً:

مرتْ أشهرٌ على وجودي بين ظهراني هذه المدينة الهادئة، وفجأة ودون مقدمات شرعَ الأهالي وأصحاب الحوانيت بإغلاق حوانيتهم، وبإغلاق أبوابِ بيوتهم وأبوابِ أقبيتهم على نسائِهم وبناتِهم ودوابِّهم إن وجدتْ.

وبعد وقت ليس بكبير سمعتُ الهرجَ والمرجَ بالخارج، ثم توالتْ صيحاتُ الرجال والنساء مع أصواتِ الكسر والخلع لأبواب المنازل والحوانيت، وبعد بضع ساعاتٍ بدتْ طويلةً ثقيلة هدأت المدينة وخرج منادٍ يدعو الناس إلى العودة إلى أعمالهم وفتح بيوتهم قائلاً: لقد عاد الأمان وخرج الشتاتُ من المدينة.

خرجْتُ من المنزل مع عمي رجب إلى السوق، ويا لَهولِ ما رأيت.. لقد تمَّتْ سرقةُ جميعِ الحوانيت تقريباً بعد تحطيم أبوابها، والعجائزُ من الجنسين وبعضُ الشباب يحاولون إصلاحَ ما تم تخريبُه، وعلمتُ بخطفِ ما وجدوه من نساءٍ وأطفال، كما شاهدتُ رجالَ الملِك بزيِّهم الرسمي يجوبون الشوارع لتقصي المعلومات وما خلّفتْه تلك الغارة محاولين تهدئة الخواطر، أما سكان المدينة فكانوا متجهِّمي الوجوه
لا يتكلمون ولا يشْكُون ويرْجون من الله الخلاص، ولم أجد من أُكلّمه ليشرحَ لي ما يجري وما حدث ولماذا يحدث؟ وأين حُماةُ المدينة؟ أين شبابُها؟ وعرفت حينها سببَ نزوعهم إلى إحداث المستور لإخفاء بضائعهم.

تجمَّعَتِ الأسئلة في رأسي، وقررتُ طرحَها على عمي رجب عند عودتي للقائه في المنزل. وفي المساء دخل عمي رجب المنزلَ وسألني عما دفعني إلى مغادرة المخزن دون سؤاله، فوضّحتُ له وِجهة نظري، واعلمْتُه قراراً فوجئ به، بأني سأغادر تلك المدينةَ بمجرد أن تتاح لي الفرصة المناسبة، رافضاً البقاءَ في مدينة أهلُها غيرُ مستعدين للدفاع عنها، إلا إذا سمعتُ ما اقتنع به، وأضعُ نفسي في الموضع الملائم للدفاع عنها.

رأيت البِشْرَ يطفحُ على وجه عمي رجب وكأني قلت شيئاً مهماً وقال: ستكون يا ولدي سهرتُنا طويلة، وستنال بغيَتك، ولن تنامَ إلا وأنت على دراية كافية بمجريات الأحداث.

وفعلاً فإنه بعد تناولنا الطعام، وذهاب رَوان إلى فراشها، جلس عمي رجب على أريكته المعتادة وقربَّني منه ثم أطرق مستذكراً، وعندما رفع رأسَه رأيته يُجْهِشُ بالبكاء، بصوتٍ أشعرني بعمق المآسي التي عاناها ويعانيها أحياءُ تلك المدينة، والأهوالِ التي مرت بهم، ثم زفرَ زفرةً مديدة موجعة وقال: منذ زمن يا ولدي كان والدي حياً، وكنت أنا في مثل سنك، وكنا نعيش في بحبوحة من العيش، وكانت مدينتُنا يأتيها رزقُها رغداً من كل مكان، وذلك نتيجةً قربها وتقرُّبها من

الله سبحانه وتعالى، وحبِّ أبناء المجتمع بعضِهم بعضاً، وكانت المدينةُ تمتلك سيفاً رحيماً يقال له سيف الرحمة يحمله حاكم مدينتنا عند تعرضها لأي أذى أو غزو، وحاملُه يصول ويجول، متمكّناً من خصوم المدينة دون أن يتمكن أحد من الوصول إليه، وتعيش بعده المدينة مدّة طويلة دون أن يفكر معتدٍ غازٍ بالتعرض لها أو لأهلها بسوء، وقد كان سكان الجبال أكثرَ رهبةً وخوفاً.

حتّى جاءنا هذا المِلِكُ الجائرُ القابعُ في قصره، والذي يمتلك جيشاً من الوحوش البشرية للدفاع عنه، دون أن يكون لهم القدرةُ على الدفاع عن المدينة، وعند استلامه الحكمَ طبعاً آل إليه سيف الرحمة، وعوضاً من أن يستمر في نهج أبيه وأجداده نَهَج نهجاً مخالفاً لهم، بتمزق المجتمع ونشْرِ الرشوةِ والمحسوبية وبيعِ الضمائر، وزاد الطينَ بلَّةً تقرُّبُ رجال الفكر والدين من الحاكم ومديحُه بمناسبة وغير مناسبة، حتى ظن نفسه الإلهَ المنتظَر، فعبَث بالاقتصاد وأضعفه، وأفقد الأُلفة والمحبة التي كانت سائدةً بين أبناء الوطن، بإصدار قوانين جائرةٍ تُبيح أكلَ بعضِهم بعضاً، وزالت على أثر ذلك البَرَكةُ وانقطع المطرُ وجفّ أكثرُ الينابيع التي كانت حولنا، وأصبحنا ندعو فلا نجاب وحدّث ما هو أسوأ من ذلك، فقد خسِرنا سيف الرحمة عندما فقَدَه الملك وهو الآن مركوز في ساحة المدينة منتظِراً قدومَ شاب من الشرق يحمل اسم نبي.

وانتقل حالنا بعد أن علم الخارجون عن القانون بفقدان السيف، فسالَ لعابُهم وطمعُهم، وتعرضت مدينتُنا للإغارات بادئين بتخوم المدينة، ثم تجاوزتُ جُرأتُهم وقاموا بغزو المدينة نفسِها، واشتبكو مع أهلها عدداً من المرات. ولما كنا مجردَ سكانٍ مسالمين لا حولَ لنا ولا قوة، وينقُصنا التنظيم والتدريب، أنهارت مقاومتُنا ودخل الشّتاتُ المدينة، دون أن يتدخّلَ الملك وجندهُ للتصدي لهم، كما لم يتمكنِ الغزاةُ من اقتحام قصره لمَنَعتِه، وتُركتِ المدينةُ منذ ئذٍ نهباً لهؤلاء الغزاة، فأخذوا كلَّ ما نملك من مالٍ ومواش، وسَبَوْا نساءنا وفتكوا بمَن وجدوه من رجالنا. والآن نحن كما ترى نواري شبابنا ونساءنا في أقبيةٍ لا يمكن الوصول إليها ومعهم ما نملك من غلال وأموال.

عندها سألته أمراً كان يجول بخاطري منذ زمن وهو ما مصيرُ ذريَّتك؟ ألم يكن لك ذريةٌ بينما أنت جَدٌّ لروان.. وهنا تحدرت الدمعةُ من عينيه وقال: نعم كان لي زوجة وقد أنجبت لي ثلاثة أبناء، بنتان وصبيّ الذي كبِر وأصبحَ رجلاً وزوَّجْتُه، وفقدْتُه في إحدى غارات الخارجين عن القانون، وهو يدافع عن زوجته وأختيه اللاتي أُخذنِ سبايا، وتَرَكوا لي روان وهي بالسنة الثانية من عمرها تقوم زوجتي برعايتها، وقد فقدتُ الأخيرةَ منذ عام حيث ماتت زوجتي بعد مرض عُضال، أصبت به بعد فقدانها أولادَها، وهما حسْبَ ظني وزوجةَ ابن ما زِلنْ أحياءً يُقِمن في الجبال.

فكرت قليلاً وتوجهتُ لعمي رجب بسؤال عن السيف، ولماذا تركه الغزاة فلم يأخذوه قبل أن يصل إليه الشاب الموعود، ولماذا لم يحاول الملك اقتلاعه أو تحطيمَه ما دامت الأسطورة يَعْلَمُها القاصي والداني.. فردّ رجبٌ على سؤالي بأن السيف وقع من الملك عند وصوله إلى ساحة المدينة محفوظاً في غمده مخترقاً أرض ساحة المدينة وقد برز المقبض منه، ولم يتمكن حتى الآنَ لا الملكُ ولا سَحَرتُه ومشعوذوه ولا مَن حاول من الغزاة سَحْبَه أو كسرَه أو طمرَه، فكل المحاولات باءت بالفشل وبقي السيف شامخاً ينتظر الشاب الموعود، واستغل مليكُنا رغبةَ الناس برؤية السيف بنى له ضريحاً يؤمُّه مَن يريد رؤيتَه مستغلاً ذلك بأخذ بضعة دريهمات من كل زائر.

وهنا شعرتُ بأني أثقلت على عمي رجب الذي بدأ النوم يتسلل إلى أجفانه، ورآني أطلب السماح منه بالانسحاب، وقمت وقبّلتُ يديه وغادرتُ غرفته والأفكارُ تتزاحم في رأسي، وتوصلتُ إلى اقتناع بأن لا سبيلَ لإنقاذ المدينة إلا بالعمل مع أهلها للتخلص من هذا الملك أولاً، ولما كان السيف وما نُسجتْ حوله من أساطيرَ يبرر الجهادَ فقد بدأتُ أفكر بإيجاد طريقة ما لأستولي على هذا السيف، ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن وأنا أزورُ مكانَ السيف وانظر إليه من بعيد وأبحث عن سبيل للوصول إلى السيف وأجرب حظي.

صمتَ محمد أمام نظر خلدون الذي كان يستمع بشغَف وسأله إن كان يُجيد القتال واستعمال السيف، فأجاب محمد بأن عمه رجب علمه مبادئ القتال ودرّبه على استعمال السيف لاعتقاده بأنه الموعود.

حينها أعلمه خلدون بأنه قادر على إيصاله إلى السيف وتجربة حظه كما قال، وطلب منه إمهاله ثلاثة أيام، وغداً سيكون له معه حديثٌ آخر، فرد محمد بأن ذلك مستحيل، فالسيف ضمن صرح مغلق، إضافة إلى أنه محروس جيداً، فالدخول إليه
لا يتم إلا من بابه الحديدي الموصد، ويمكن للجمهور رؤيتُه غيرَ أنه لا يمكن لأحد الوصولُ إليه باقتحام قفَصه الحديدي إلا إذا كان قادراً عي ذلك، أو كان بحوزته مفتاحُ ذلك الصرح. ابتسم خلدون وقال: ما كنتُ لأقترحَ لو لم أكن واثقاً.

خرج محمد من خرابة خلدون وهو يضرب أخماساً بأسداس، وفي تقديره أن جميع الدروب مغلقة، فلا هو ولا خلدون ولا غيرُهما لديه القدرة على اقتحام صرح السيف دون مفتاحه، ثم لوى رأسه قائلاً: لن أهرب من التجربة ولن أظهر له ضعفي. ثم سأل نفسه إن كان خلدون ليس عابرَ سبيل، أو أنه رجل من رجال الشّتات أو عميلٌ من عملاء الملك.. ثم دس يده في جيبه وأخرج القطع الذهبية التي لا تمت إلى مدينتهم بصلة قائلاً لنفسه: إنّ تلك النقود تضع خلدون خارج دائرة الشك.

وبقي محمدٌ متردداً حتى أزِفَ موعدُ لقائه مع خلدون صباح اليوم التالي، وما إن التقيا حتى وجد خلدون ومظاهرُ الجِدّ باديةٌ على وجهه يقول: أريد بعضاً من المنوِّم أو المخدِّر قبل حلول الموعد دون توجيه أي سؤال، وأنا أعلم قدرتك على جلبها والعودةِ ثانية قبل منتصف ليلِ بعدَ غد.

أطرق محمدٌ قليلاً ثم قال: إنّ تلك الموادَّ من المحرمات، والناسُ هنا يحاربون تعاطيها. فرد خلدون متسائلاً إن كان محمدٌ يريد الفوز بالسيف فليفعل ما أطلبه، وهو يعلم جيداً قدرتَه على جلبها لوجوده في السوق، وأنا بانتظارك بعد غد بعد حلول الظلام.

خرج محمدٌ من خربة خلدون نادماً على إشراك خلدون بهموم المدينة وحاجتِها إلى مخلِّص، وصدّق هذا الوافدُ المقولة، وأخذ يخطط وكأنها حقيقة واقعة. والأكثرُ إيلاماً أنْ أكون أنا رأسَ الحربة، والأنكى أن تكون تلك المقولة هُراء، والضُعْفُ المُلازم لتلك المدينةِ هو السبب، وأذهبُ أنا ضحيةَ تلك الأسطورةِ دون أن أقدّم أيّ شيء مقابل فقدان حياتي.. ثم تساءل لماذا المخدِّر؟ ولمن؟ وبقي على ذلك حتى أزِفَ الموعد.

التقى محمدٌ بخلدون في الخرابة، فقد كان بانتظاره، وقدّم له المخدرَ المطلوبَ وهو يَعِدُه بالعودة قبل منتصف الليل.

في أثناء ذلك كان خلدون وعصفورتُه الطنانةُ قد وَضَعا تصوراً كاملاً عن مكان السيف، ومداخل ومخارج الصرح، وأمكنةِ الحراس، ومكانِ مفتاح الباب الحديدي.. فقد كانت العصفورة تقوم بزيارات عدة بصفتها عصفورةً طنانة في النهار، وبُومةً في الليل. وفي تلك الليلة زوّد خلدون البومةَ بالمخدِّر طالباً منها مَزْجَها بماءِ شربِ حراس صرح السيف الموجودِ في جرتهم المعلقةِ أمام المَحْرس.

وقبل منتصف الليل بقليل حضر محمدٌ إلى الخرابة التي يقيم فيها خلدون وأخبره بأنه تسلل خارجاً من بيت عمه رجب، وأن أحداً لا يعلم شيئاً عما سيفعلانه. في تلك اللحظةِ قدَّم خلدون إلى محمد مصوَّراً عن الصرح ومداخلِه ومخارجِه وأمكنةِ وجود حُرّاسهِ ومكانِ مفتاح الباب الحديدي والطريقِ الواجبِ اتباعُه، وبينما كان خلدون يشرح كان محمدٌ يتلقّى الشرح مذهولاً والعَجَبُ يلفُّه، وختم خلدون حديثَه بقوله: إنك ستجد حراسَ الصرح عند وصولك وهم في سبات عميق.

وما إنْ خرج محمدٌ باتجاه الصرح يحمل مصوَّرَ خلدون حتى كانت البومةُ تخبر خلدون بأن حراسَ الصرح نيام، وأن المخدرَ قد فعل فعلَه فيهم، مزهوةً بأنها تمكنت من مزج المخدر بماء الجرة قبل أن يبدأ الحراس تناولَ طعامِ عشائهم.

بعد منتصف الليل بقليل عاد محمدٌ من مهمته ووَجهُه يطفحُ بِشْراً، وراح يُقّبِل خلدون ويصفُه بأوصاف الأبطال والمجاهدين وهو يُريه

السيفَ وقد تمنطق به، واصفاً مغامرتَه بالمغامرة السهلة بفضل ما زوّده به من معلومات، سهّلتْ عليه دخولَ الصرح من ممرٍ قد أُخفي عن الجميع، إلا من يرتاده من الحراس وهم حراسٌ ليس لَهم وجود فالنوم قد غلبهم. ووجد المفتاحَ في مكانه كما أشير فوقَ رأس رئيس الحرس، وهذا المكانُ الخَطِر لا يمكن لأحد أن يمر عبره إلا إذا مرّ عبر مفتاحٍ في جيب رئيس الحرس. وجاء دور السيف الذي ما إن لَمَسْتُ مِقبضَه حتى اهتز فشعرتُ بالخوف، ولكنّ فرحي تغلب على خوفي ومددْتُ يدي معاً ونزعته من مستقَرِّه، وكم كانت سعادتي شديدةً عندما أصبحَ السيف بين يدي أهُزّه، فحمِدْتُ الباري حمداً كثيراً وتمنْطَقْتُ به وأنا غيرُ مصدّق بأني حصلتُ على المستحيل، وخرجتُ فخوراً بما أنجزتُ وما أحمل إلى مَن ساقه الله ليكونَ عوني في ذلك الإنجاز.

دقّق خلدون بالسيف بين يديه وشاهد كتابات الرحمة، وما قيل عن الرحمة في القرآن الكريم موزع على سطح السيف من الجانبين، وتَحْمِلُ القبضةُ عبارة (الله أكبر) فهنّأ محمداً على سريرته وحبِّ الله له وتمنىَّ له التوفيق في مهمته.

خرج محمدٌ من خرابة خلدون ودخل بيت عمه رجب مع أذان الفجر، فوجد عمَّه رجباً يتوضأ، وفوجئ العم بدخول محمدٍ عليه يتمنطق سيفاً والبِشر يطفح من وجهه وهو يردد سيفُ الرحمة يا عمي.. سيفُ الرحمة يا عمي.

أخرج هذا الخبرُ رجب من هدوئه وسأله أيَّ سيف تقصد؟ فقال محمد: سيفَ الرحمة ها هو معي. حينها أخذ رجبٌ السيف من يد محمد ودخل غرفته التي كانت سراجُها متقداً، وتفحّص السيفَ وقرأ ما عليه وهو يقوم بارتداء ملابسه الخاصة بالخروج، داعياً محمداً إلى مرافقته على الفور وهو يردد الحمد لله لقد أذِنَ الله بالفرج.

خرج الاثنان باتجاه شرقيِّ المدينة وعبَروا بطرقهم أحياءً سَكَنية ضيقةً إلى خارج المدينة ووصلا إلى بيتٍ منعزل، طرق رجبٌ الباب بمطرقة على مسمار كان مثبتاً وسط الباب فأزيل المسمار ليظهر ثُقْبُه،

أدخل رجب في هذا الثقب عوداً وضغطه بقوة فسمعا صوتَ ناقوسٍ يدق في الداخل، وبعد لحظات سمعا مِزلاجَ الباب يتحرك والبابُ يفتح من قِبل شاب في مقتبل العمر مرحباً بالضيوف، ودخلا دهليزاً مضاءً مدرَّجاً بدرجات خمس، وما إنْ وصلا إلى نهايته حتى اصطدما بحائط من صخر، وما هي إلا لحظات حتى تحرك الحائط وظهرت خلفَه قاعةٌ كبيرةٌ يُضيئها قنديل، وسمعا صوتاً أجشَّ يقول: اِجلسا، فجلسا على مقعد من حجر وهما يسبحان الله حتى ظهر لهما شيخ جليل، وما إن استقر الشيخ في مجلسه حتى سألهم عما يرغبان، فقال رجبٌ إنه سيف الرحمة يا سيدي.. أَلجمتِ الكلمةُ الشيخ واتسعت عيناه وقال: أَعِدْ ما قلتَ: فقال رجبٌ: إن محمداً مُرافقي قد حصل هذه الليلةَ على سيف الرحمة، وإنه يضع نفسه وسيفَه في خدمة المدينة، فهُرِعَ الشيخ نحو محمدٍ ورأى السيف، ونادى اللهُ أكبر ثلاثَ مرات فانفتح بابٌ على ساحةٍ كبيرة مزوّدةٍ بكل ما يَرغبه المقاتل، وما هي إلا لحظاتٌ حتى كانت تَعُجُّ بالمقاتلين المدججين بالأسلحة وهم يتواردون لرؤية حامل السيف المنتظرَ ويرددون الله أكبر، وشاهد محمدٌ توارُدَ رجال المدينة من كل صوب على صوت الله أكبر، ودخلوا ثم خرجوا متراصّي الصفوف وعلى رأسهم الشيخ الجليل، ومحمدٌ يلوِّح وبيده سيف الرحمة، وكانت صرخةُ الله أكبر من المقاتلين قد جمعَتْ حولهم أهل المدينة بشبابها وشيبها مخترقين الحواجز المُقامةَ والأسوارَ المنيعةَ حول قصر الملك، وأزالوا الطاغيةَ من مكانه مقتولاً فانقشعتْ بقتله عن المدنية كآبتُها.

ولم ينتظرْ سكان المدينة من المقاتلين مرورَ النهار، بل خَرجوا إلى الجبال وعلى رأسهم محمدٌ يحمل سيفَ الرحمة، ففاجؤوا الشّتاتَ في الجبالِ على حين غِرَّة، تبعَها جولاتٌ يسبِقُ المقاتلين فيها صدى سيفِ الرحمة، فقد كان لصداهُ وقع الخوف والهلَع بالشتّات فهرَبوا ناجين بجلودهم تاركين كلَّ ما يملكون لقمةً سائغةً بأيدي جيش محمد، ولم يمض شهرٌ ونيِّف على خروجِ سيف الرحمة حتى كُتب لحامله النصرُ المُبين على الشتات. استقبلتْه المدينة بالزغاريد وأقواسِ النصر مصطحباً معه أسرى المدينة، وكان من بينهم ثلاثُ نسوةٍ هنّ كل ما

بقي لرجبٍ خارجِ بيته. وعندما خلا محمد إلى نفسه نظر إلى السيف نظرةً ملؤها الثقةُ وقال لنفسه: إنّ هذا السيفَ يصول ويجول ويبترُ مستعيناً بجَسَدي، وأنا الشابُّ الذي لا يعرف القتالَ ولم يزاوله قط، ثم هزّ رأسه متمتماً أنْ لا إرادةَ غيرُ إرادةِ الله.

ودَّعَ محمدٌ صديقه خلدون بدموع المحبة وهو يرجوه البقاء، مزوِّداً إياه بكل ما يحتاجه برحلته بما فيها عربةٌ يجرُّها حصانان لحمل المؤونة، وخصَّهُ بناقةٍ بيضاءَ لها خصالٌ متميزة لا تتوفر بمثيلاتها وكانت إحدى غنائمه المستهدفةَ لكونِها تخصُّ قائدَ الشّتات باحثاً بين طيات فكره عن سر خلدون ورحلتِه وما فعله في الأيام الخوالي من معجزات.

سار خلدون كما أراد مكمِّلاً رحلته نحوَ بلاد الهِيم بالاتجاه المرسوم في خارطة ضياء الدين في صحراءَ موحشة مدةَ أسبوع كامل دون أن تصادفه أيُّ منطقة مأهولة، وكانت عصفورتُه هي سلواه الوحيدَ في رحلته، فقد كانت تقُصُّ عليه الأقاصيص، منها ما يستمع إليه ومنها ما يتركُها تثرثر دونَ أن يأبهَ بما تقول.

حتى كان يومٌ والشمس على وشْكِ المغيب، وكان قد حطَّ رحالَه في واحةٍ قربَ بحيرةِ ماء وحولها أشجارُ النخيل، والهواءُ يَصفِقُ أعوادَ النخيل، والعصفورة تصعَدُ وتهبط على تلك الأشجار تطربُه بصوتها الشجي وكلماتها التي تَرُدُّ الروح، وسعادتُه بها لا توصف، فأرادها أن تكون بقربه فاقترح عليها أن تَروي له قصةَ حياتِها قبل التحول، لأنه لم يعرف شيئاً عنها، فردت بأنّ قصةَ حياتها سابقةٌ لأوانها، وأنّ لديها قصةً تطربه.. فرد مرحباً بكل ما تعرفه من قصص بشرط أن تبقى قربَه لتبديد وحدته في تلك الصحراء الموحشة.

فرحت العصفورةُ لأنّ خلدون بدأ يجد برِفقتِها الأنسَ وبأقاصيصِها التسلية، فاتجهت إليه واستقرت على ركبته قائلة: هل أنت يا عزيزي جاد بطلبك؟ فرد خلدون لا مكانَ بقلبي لغيرك، ولا مكانَ بفكري إلا لك ولا مكانَ لسلواي إلا بما تقُصّينه عليّ فاروي يا عصفورتي بصوتك

الشجي قصةً طويلةً لأني لا أرغب في هذه الليلةِ بالنوم باكراً، فتنحنَحَتِ العصفورة وأضحكت بنحنحتها خلدون وبدأتْ قائلة:

يُحكَى يا أميري أن تاجراً غنياً تُضرب بثرائه الأمثال، وله مكانةٌ مرموقة وكلمةٌ مسموعة في مدينة اسمها مدينةُ الزعفران، وكان هذا التاجر سعيداً في حياته إلا أنه لم ينجب أطفالاً يملؤون عليه فؤادَه ويساعدونه في تجارته.

وفي إحدى الأمسيات وبينما كان هذا التاجرُ جالساً في متجره مرّ به رجل عجوز يحمل عكازاً وألق عليه السلامَ طالباً في الوقت نفسه حسنةً لله، فوقف التاجر على الفور وأعطى العجوزَ ما جادت به يدهُ، فانصرف العجوز بضعَ دقائق ثم عاد طالباً منه حسنة، فأعطاه التاجر مرة أخرى ما جادت به يده، وكررها العجوز طوال المساء وكان التاجر في كل مرة يعطيه دون أن يضجر أو يتردد وفي آخر مرة وبعد أن أخذ العجوز ما جادت به يد التاجر وقف أمام التاجر وقال: أنت من تقول فيه الأسطورة إنه سيأتي من صُلبك ولدٌ يكون فخرَك وفخرَ بلدك وأمتك.

فرح التاجر بهذه البُشرى ونذَر إنْ رُزق بما بُشّر به فلن يتوانى عن تسميته غريباً تيمناً بهذا العجوز، وبعد حينٍ رُزق هذا التاجر ولداً جميلاً أسماه (غريباً) ومرت السنون وترعرع غريب في بيت والده بين المحبة والعناية الفائقة، ورباه على الجود والسخاء ومحبة الناس، وكان غريب ذكياً متلقفاً لدروس معلميه بفطنة وقدرة حتى أصبح أكثرَ أقرانه نبوغاً وحكمة.

كَبِر غريب وأصبح يافعاً، وأراد أبوه الذي أقعدته السنون أن يعلّم ولده مزاولةَ عمله تاجراً يَخرُج بتجارته عبر المدن، فقام بتجهيز تجارةٍ بدائيةٍ لا تتعدّى في حركتها المدنَ والقرى القريبة، وانطلق غريبٌ في رحلاته التجارية ينجح تارةٍ ويُخفق تارة أخرى واستفاد من دروس الحياة، ومكنته تجارِبُه من الارتقاء حتى أصبح تاجراً يجوب المدن البعيدة بتجارته الكبيرة والمعقدة.

ومضى غريبٌ يكْبَر وتكْبَر معه تجارتُه ويكْبرَ معهما فخرُ أبيه به وبإنجازاته، حتى كان يومٌ كان فيه غريبٌ ماراً بسوق النخاسين، فشاهد أعداداً من العبيد والجواري المعروضة، ولفت نظرَه عبدٌ طاعن في السن معروض للبيع أيضاً، فقال غريب لنفسه من يشتري هذا العبد الذي هو بحاجة إلى من يقوم بخدمته وإطعامه، وأفضلُ خدمةٍ تقدم له هي إعتاقه ليُكملَ حياته المتبقية حراً.

اختمرت الفكرة في رأس غريب وقرر شراءَ العبد وإعتاقَه، فتقدم من النخّاس وسأله عن قيمة هذا العبدِ وهو يشير إلى الطاعن بالسن، فرد النخّاس بلهفة قائلاً: خذه دونَ مقابل فهو يرفض الإعتاق بحجة أنه لا يُمْكنه خدمةُ نفسه، وليس لديه مالٌ لشراء عبد أو جارية تخدُمُه، وعندي ينال الرعايةَ والعنايةَ بالإضافة إلى الطعام والشراب والكساء، من أجل ذلك نحن نعامله أسوأَ معاملة لإعتاقنا نحن دونَ جدوى.

ضحك غريبٌ لقول التاجرِ وأدارَ رأسَه ليغادرَ المكان، فناداه العبدُ باسمه قائلاً: يا غريب خذني معك ولن تندم وسأكون عوناً لك، جربّني وسأغادرُك عندما تطلب مني ذلك. فسأله غريب ماذا تقصد بمناداتي يا غريب؟ فرد العبد لأن هذا اسمُك ولم آتِ بجديد.. حينها التفت غريب إلى النخاس وقال له: فُكّ يده وآتني بحُجّته فإنني قَبِلْته ضمنَ قافلتي.

فرح النخّاس بطلب غريب وأسرع بفك قيد العبد قبل أن يُغيّر غريب رأيه، وناوله حُجَّتَه وهو يتمتم بشكر رب العالمين، واصفاً غريباً بتاجرٍ عديمِ الخبرة. وساعد غريبٌ العبد لدى صعودِه عربته وهو يحثُّه على ترك عُكّازه وإلقائِها خارجاً، فرفض العجوز وأدخلَ عكازَه معه ضارباً عرض الحائط بقول غريب الذي شعر بأنه أمام عبد عنيد، ويمكن أن يسبب له بعناده الكثيرَ من المتاعب.

غادر غريب المدينةَ بعد أن انتهى من البيع والشراء وحصل على بضاعةٍ مطلوبة في مدن أخرى قادمة، ولما كانت المدينةُ القادمةُ لا تبعُدُ أكثرَ من مسيرةِ يومٍ وليلة فقد وجدَ غريبٌ نفسَه يسير يومين وليلتين عبر طريق لم يألفه، تحفُّه الجبال من كل صوب، وقد دخلتْ عربتُه في ممر ضيق يستحيلُ الرجوع عنه فارتأى الاستمرارَ بالسير

حتى بلوغِ الطرف الآخر من الجبل، وبينما هو على هذا الوضع السيء سمع عُواءَ ذئابٍ وصوتٍ رجلٍ يستغيث يطلب النجدة، فكّر غريبٌ برهة ثم قرر التوجهَ نحو مصدرِ الصوت، وقد تبادرَ إلى ذهنه أنه سيجدُ مَن يُخرجُه من مأزِقِه ويُرشده إلى طريق القوافل أو إلى مكان مأهول، وما إنْ وصل غريبٌ إلى مكان المستغيث حتى وجد رجلاً مُوْثَقاً معصوبَ العينين والذئابُ في وضع الحركة البطيئة حوله اقترب غريبٌ بحصانهِ من جموع الذئاب يُخيفهم برمحه ليُبعدَهم عن حصانه الذي كان يرمقهم بحذر شديد، وصوتُ أنفاسه يتصاعد مع كل خطوة يخطوها نحوهم، وأثناء ذلك سمع غريبٌ صوتاً يحذره مانعاً إياه من الاقتراب باسم حاكمِ مدينةِ العَجاج الذي أمر بقتل الرجل بتلك الطريقة التي يفضّلها.

قَفَلَ غريبٌ منصاعاً يفكّرُ بطريقةِ الإعدام هذه ويعاتبُ القَدَر الذي لم يترك له منفذاً يُرشده إلى الخروج من مأزقه ولو كان ذلك بطريقِ المحكوم، وما إنْ وصل إلى قافلته حتى تصدى له الكهل يحثُّه على العودة وتخليصِ المحكوم ولو اضطر إلى رشوة مندوب الحاكم، لأن المحكوم سيكونَ مُنقذه إلى السلامة، قبل أن يذهب ذلك المنقِذُ قِطَعاً في أحشاء الذئاب.

عاد غريبٌ مسرعاً نحو المحكوم، وما إنْ وصل قبالةَ مندوب الحاكم وصوتُ المستغيث يلعلع حتى بادره غريب بسؤالٍ إن كانت دنانيرُه العشرَةُ تُطلق يدَه في ذلك المحكوم، فوافق مندوب الحاكم بعد تردد والتقط كيس الدنانير وغادر المكان، مما سمح لغريب بالاقتراب من بُغيته، وإبعاد الذئاب مرة أخرى برمحه، وكان فخوراً بحصانه الذي تخطى عُقدةَ الخوف، واقتحم مجموع الذئاب مساعداً غريباً الذي كان يستخدم رمحه بأبعادهم من المستغيث، ولكن جهودَه باءت بالفشل عدما أخذت الذئاب تتدافع وتقتحم مكانَ قوائم الحصان التي كانت تتحرك بعنف وتقوم بقذف الذئاب بحوافرها، مما أضعفت ثباتَ غريب على ظهر الحصان وفقَدَ في خضم تلك الحركات السريعة للحصان رمحه، ففقد بذلك السلاحَ الوحيد الذي يعتمد عليه في صِراعه مع الوحوش، وشعر بضعف موقفه وقرب نهايته ونهاية حصانه إذا استمر

الوضع على حاله. وبينما هم في خضم ذلك سمع غريبٌ صوتاً ينطِق بكلماتٍ غير مفهومة، ولها رنينٌ لم يسمعه قبلاً، فشاهد ابتعاد الذئاب عنه وعن المستغيث وهي تعوي عواء المتألم، وكأنّ شيئاً ما قد مسّها شديد الإيلام. فالتفت غريب إلى مصدر الصوت مستغرباً فوجد الرجل الطاعن بالسن وبيده عكازه يدفعهم بها ففرح غريب فرحاً شديداً وحمِد الله الذي ألهمه ضمَّ هذا العجوز إلى قافلته.

أنقذ غريبٌ الرجلَ ونقله إلى عربة الصحة، وأمر العاملين بها إخبارَه عن حالته وهل بمقدوره الإجابة عن أسئلته وكان غريب يتذكر فِعلة الطاعن بالسن والقدراتِ التي يمتلكها، فما صوتُه والعكازُ سوى سلاحين لا يعرفُ بعدُ مَداهما، وفي تلك اللحظة سمع غريبٌ عاملَ العربة الصحية يقول: إنّ المستغيث على استعداد لمقابلة المنقِذ.

دخل غريب عربة الصحة فوجد المستغيثَ ما زال مُسجَّى على أرض العربة فاستقبله شاكراً وهو يعرِض ردَّ جميلِهِ بكل السبل، ولكن غريباً لم يكن يشغله سوى كيفية الخروج من المأزق الذي وضعه فيه قائدُ قافلته، فحشر تلك القافلة في هذا المكان الضيق بين الوحوش الضارية والشمس اللاهبة، وأثناء ذلك لفت نظرَه شمعةٌ حُشرت في أذُن المستغيث، ولما سأله عن السبب أجاب المستغيث بأن تلك الأذن التي فيها تلك الشمعةُ، هي سبب محنتي وما آلت إليه حالتي وكادت أن تُنهي حياتي، ولا مجالَ لحشر قصتِه بما نحن فيه.. ولكن إصرارَ غريب كان مُلحّاً للتعرف على الأسباب الموجِبة للحكم عليه ليكون طعاماً للذئاب، خشية أن يكون الرجل مستحقاً إنزالَ العقاب به، وأن إنقاذه سيحرِمُ العدالةَ من تطبيق نصوصها.. حينها استجاب المستغيث لإصرار غريب وبدأ قصته بحضور الطاعن بالسن الذي قال: وهنا قاطع خلدون عصفورتَه الطنانة محتجاً يطلب منها إنهاءَ قصة الغريب قبل البدء بقصة المستغيث، فالليل قد بلغ منتصفه، والنوم زحف إلى جفونه يطرقها، وهو يريد أن يعرف ماذا حلّ بقافلة الغريب.. فردت العصفورة بأنها في الطريق إلى ذلك، ولكن قصة المستغيث هي جزء من قصة الغريب. حينها اقترح الأمير خلدون الجنوحَ إلى النوم وسماعَ

باقي القصة غداً في طريق السفر، رغم أن شوقه لسماع باقي القصة لا يزاحمه أي شيء آخر.

نام الأمير تلك الليلةَ وهو يهجس بقصة التاجر غريب وما آلت إليه حالته، وفي الصباح وما إنْ بدأت القافلةُ بالمسير حتى دعا خلدون عصفورتَه للولوج في جيب سترته وإسماعِه ما حلَّ بالتاجر غريب وقافلتِه، ضحكت العصفورة ضِحكةً مدوية باعتبار أنها تمكنت من شد الأمير إليها بعنف قائلة:

المستغيث يا أميري هو الأمير عمار أمير جزر الكَنار، فهو أمير قوي وشهم لملك تلك الجزر، وقد دانت لهذا الملك خُلجانٌ وجزرٌ وأراضٍ واسعة، وترعرع هذا الأمير بين أحضان الطبيعة الخلابة، والأنواعِ التي لا تحصى من الطيور والحيوانات البرية المختلفة، وفي أثناء ترحاله بين الجزر التي يحكمها والدُه لفتت نظرَه فتاةٌ في عمر الورود، وقد نسجت لباسَها من الزهر وأوراق الشجر، وكان جمالها يفوق الوصف، فتعلق بها الأمير عمار عندما تجاذبا الحديث وعرّفها بنفسه على أنه صيّادُ سمك يعيش على ما يَعْلَق بأداة صيده من السمك، وعرّفته بنفسها، وبمرور الوقت كانت الفتاة قد تعلقت به أيضاً، ونسجا معاً كوخاً ورديا يلتقيان به كل أسبوع.

مرت الأيام ولا شيءَ يعكر صفو لقائهما، حتى جاء يومٌ حضرت فيه فتاتهُ هالة تحثُّه فيه على مقابلة والدها لخِطبتها لأن هناك من يريد الاقتران بها، وقدرتُها محدودة على منع ذلك، ولما كان أملُه معقوداً على العيش معها وعدمِ التفريط بها فقد عمَد إلى مقابلة ذويها بصفته صياداً ماهراً وذا رأسمال جيد يستطيع تلبية طلباتهم، ولكن هؤلاء الذين يفضّلون المالك الميسور صاحب الأطيان والخدم
ولا يلتفتون إلى ابنتهم وما تريد ـ أصروا على رفض طلبه. ووجد الأميرُ عمارٌ نفسَه مضطراً إلى إشهار هويته بالشكل الذي يُقنع ذوي هالة. فغادر منزل فتاته والتصميمُ بادٍ على محيّاه بأنها لن تكون لغيره، كيف لا وهو ولي عهد المملكة وصاحبُ الكلمة المسموعة، والقادرُ على تحقيق ما يريد، وفتاتُه ليست إلا فرداً من أفراد شعبه الذي يُكِنّ له

الولاء والطاعة، وما كان تقمُّصُه صفةَ صيادٍ إلا كي يكسَب قلبَها بشخصه لا بمنصبه، كما هو حال المحبين دون دوافع اجتماعية أو مالية.

عاد الأمير عمار في اليوم التالي يرتدي حُلّة الإمارة على رأس ثُلّةٍ من حرسه، ووِجهتُه منزلُ محبوبته هالة، واضعاً نُصْبَ عينيه أخذَها من ذويها في كل الحالات دون النظر إلى ما يرغبون. وما إنْ وصل إلى منزلها ووجده موصَداً حى عرف بأن خاطباً اسمُه صلاح ينوي الزواج بمحبوته قد غادر الجزيرة بها وبأهلها.

فَقَدَ عمارٌ صوابَه عندما سمع مقولةَ أهل الجزيرة، وبدأ يُرغي ويُزبد، وأمرَ بالبحث عنها وعن ذويها وغريمه صلاح، وخصّص مكافأة مجزية لمن يُدلي بمعلومات عن مكان وجودهم.

ومرت الأيام وعمارٌ وأهل مملكته لم يجدوا لضالتهم أثراً، مما دفعه إلى السَّحَرة والمشعوذين.. حتى كان يوم حضر إلى قصره طبيب مشهور، وقابَلَ الأميرَ عماراً الذي أضناه البحث، وانعكس ذلك على حالته الصحية والنفسية مسبباً له الضَعفَ والهُزال، وسأل الطبيب هذا المتيَّمَ إن كان لديه أيُّ أثرٍ من آثار محبوبته هالة ليتم بوساطته تتبُّعَ آثارها والتعرفَ على مكانِ إقامتها، فأجاب الأميرُ عمار والحسرة تُعبِّر عن نفسها بنبراتِ صوته قائلاً: إنه ليس لديه أيُّ شيء من مقتنيات محبوبته، وأنه لم يَدُر بخَلَده يوماً أن يفقِدها، وما كان يفعله هو إعطاء نفسه بعضَ الوقت ليطمئنّ إلى أن من سيقترن بها ترغب فيه لشخصه لا في ملك أو جاه، وأنه يستهويها هو دون غيره.. وبعد مداولات اقترح الطبيبُ على الأمير عمار أمراً في غاية الخطورة، وهو قيام الطبيب بوضع جهازٍ داخل أذُن عمار اليُسرَى لاقطٍ لأمواجٍ صوتية، يعمل بقوة الإرادة المركّزة لحامل الجهاز، وبفضله يمكنه سماع أيِّ صوت يريد دون تشويش إلا إذا كانت إرادة حامل الجهاز مشوشة.

راقتِ الفكرةُ لعمار ووجدَها حلاً مثالياً لوضعه دون أن يسأل عن تبعات ذلك وكلُّ تفكيره كان منصباً على أنه سيسمع صوت هالة وسيعرف وِجهة نظرها بما يحدث، بينما كان الطبيب الذي أخرج من

حقيبةٍ كانت بحوزته قطعةً معدنية سوداء لامعةً بحجم العدسة قائلاً: إن تلك الأسطوانة سيجري تثبيتُها داخل أذنك اليسرى وتُربط بعصب الأذن الوسطى وتلك الجراحة ستكلفك شيئاً من الألم، بادره عمارٌ بسؤال إن كان لديه منها الكثير؟ فأجابه الطبيب إنها فريدة، وإنّ صديقه العالِمَ الذي صنعها وأمضى حياته في صنعها ـ كان يود أن تكون في أذنه وهو الجراح المكلَّفُ بتثبيتها، ولكن المنيَّةَ كان قد حرمته من التمتع بما أنجز لتكون في أذن من أراد الله له ذلك.

ولما أبدى عمارٌ استعداده بدأ المِشرَطُ والمِلْقطُ يقومان بعملهما بين يدي الطبيب الماهرتين، شعر عمار عند إجراء العملية بألم شديد عمِلَ على تحمُّلها حتى أنجز الطبيب عمله ونظر صوب عمار وهو يبتسم، فعاجله عمار بالسؤال إن كان قد انتهى؟ فرد الطبيب بالإيجاب وهنأه على نجاح العملية، وهنا سأله عمار عن المدة التي سينتظرها حتى تعمل أذنه بواقعها الجديد؟ فرد الطبيب بأن ذلك يعتمد على المدة التي يلتحم فيها الجهاز الذي تم تثبيته خلف طبلة الأذن اليسرى، وتختفي آثار الجراحة التي سببّها في مجرى الأذن وداخلَها.

مضى أسبوعٌ على زيارة الطبيب للأمير عمار وعمارٌ يتابع عملَ الجهاز المحشوِّ في أذنه ويراقب كل تطور يحدث فيها لحظة بلحظة، حتى آفاق في اليوم الثامن من نومه وهو يهجِس بمحبوبته وعمِلَ الجهازُ فسمع حِواراً خافتاً مشوشاً يجري دون أن يفهم محتواه، فعرف بأن شفاء أذنه بات وشيكاً، وأن الجهاز على وشك العمل، وأخذ مع الوقت يركّز على هالة وهو يسمع بين الفينة والأخرى حِواراً يتضح مع كل ساعة تمر حتى سمع حِواراً واضحاً كان يجري بين هالةَ وبين مَن تحاوره، وعرف من خلاله أن هالةَ ما زالت على خلاف مع أهلها فهي ضد رغبتهم بالزوج الموعود صلاح الذي كانت فكرته الابتعاد والتواري، واصطدم الأمير عمارٌ بعقبة أخرى لم تخطر على باله هي: كيف له أن يعرف مكان وجود صاحبة الصوت، ولكنه اطمأنّ إلى أن محبوبته هالة ما زالت عذراء، وأن حبها لم يفْتُر، وتمنى أن يلتقي بالطبيب ليوجهه ويعرف من خلال السمع مكان وجود محبوبته، لما أعيته الحيلة تبادر إلى ذهنه البحثُ عن الطبيب ومكانِ إقامته، فاستخدم

أذنه وسمع صوت الطبيب، ففرح بذلك كثيراً، ولكنه اصطدم أيضاً بالطريقة التي يعرف فيها مكانه، فقرر البحث عنه وعن محبوبته باستخدام تلك التقنية الفريدة، وأثناء ذلك كان صوت محبوبته يتضح ويعلو كلما اقترب من شاطئٍ بعينه، وكأنها أقرب إليه من الأماكن الأخرى، وكان كلما ابتعد عن تلك الزاوية من الشاطئ يعود الصوت إلى حالته، حينها جزم بأن محبوبته غادرت الجزيرة، وأنها على اليابسة المجاورة خارج جزر مملكه أبيه، فلم يَرَ بُدّاً من ملاحقة ذلك الصوتِ ولو اضطر إلى ملاحقته، وعبور البحر إلى الشاطئ المجاور الآخر.

غادر عمارٌ مملكة أبيه بصفة تاجرٍ على مركب مع حفنة من عبيده مستخدماً أذنه في التوجه، فالموجاتُ الصوتية العالية لمحبوبته تتوارد عبر البحر تحدد مكانها، ويتلمس عمار طريقه بدقةٍ نحوها عبر البحر، وتراءت له مدينة ساحلية كبيرة فوصلها والليلُ بدأ يُرخي سدوله، متلمساً طريقه بمنارتها العالية، وما إن استقر مركبُه على الشاطئ حتى غادره عابراً الميناء نحو المدينة متنقلاً بين أحيائها وأزقتها، وكان صمت محبوبته في هذا المساء قد فوتّ عليه فرصةَ إيجادها، واضعاً نصب عينيه بأن سبب صمتها يعود إلى أنها قد أَوَت إلى فراشها، وأن غدا سيكون اللقاء بها وأضاف كلمة «إن شاء الله».

استيقظ عمارٌ في الصباح على صوت هالة تناجي الله تسأله حمايتها من هذا العجوز الكريه، ثم سمع صوت أمها تدعوها إلى إعداد نفسها لتُزَف إلى الوزير شفيق، وسمع صوت هالة ترجوها حمايتها من هذا الوزير القبيح، ثم تكرر صوت أمها تحثُّها على الإسراع، لأن حراس الوزير سيحضرون لأخذها إلى مكان تجهيز العرايس لتجهيزها، وأنهم أي أمَّها وأباها ومعهم صلاح غيرُ قادرين على حمايتها.

عرف عمارٌ بأن الأمور أخذت منحىً خطيراً، فقرر الإسراعَ قبل أن يفوت الأوان ويفقدها إلى الأبد، فأخذ ثُلةً من عبيده ودخل المدينة وهو يبحث عبر الأزقة عن مصدر الصوت، وحالفه الحظ والقدَر

وأوصلته أذنه إلى مكان، طرقَ بابَه فخرجت امرأةٌ تسأل عن الطارق؟ فقال عمار: أنا الضابط المرسل من قبل الوزير شفيق لأخذ خطيبته، وهنا سمع عمار الحوار في الداخل يرافقه بكاءُ محبوبته التي خرجت إليه عنوة تجرها النسوة، وكانت المفاجأة التي أذهلتها وقلبت شكلها رأساً على عقب، مما سهّل عليه مهمته بإبعادها عن بيت ذويها بسرعة وبينما كان يغادر الحي تَصادفَ خروجُه مع قدوم عربة فاخرة، وأمامها وخلفها فُرسان القصر، فعرف عمار بأن أمره سينكشف، فقرر الطلب إلى عبيده نقلَ هالةَ إلى مركبِهِ على الفور، بينما قام عمار وبعضٌ من عبيده بتأخير الموكب ريثما تختفي هالة ومرافقوها.

ما إن شعر عمار بأن الضابط لقد لفتت هالةُ نظره بشكلها ولبساها حتى انقضّ مع من بقي من عبيده على تلك المجموعة من الجنود، فاسحاً المجال لهالةَ ومرافقيها من عبيده للتواري والوصول إلى مركب عمار على الساحل، وأظهر عمار براعة في القتال أذهلت مقاتليه، وكان في كل مرة يجرّد سلاحَ من يغلِبه ويطلقُه، حتى شعر ضابط المفرزة الذي كان آخرَ من نجا من حد سيف عمار بأن عماراً
لا يبغي إلا إنقاذ الفتاة التي جاء من أجل جلبها، فاقترح عليه الضابط تنفيذَ ما يرغب فيه وذلك بترك الفتاة ومرافقيه بأمان، مقابل استسلام عمار لهم ليكون كبشَ فداء لحمايتهم من انتقام الوزير منهم.. وجد عمار باقتراح الضابط حلاً مناسباً بشقّه الأول، بينما كانت المشكلة بتنفيذ الشق الثاني الذي سيجعله رهينة بيد الوزير ريثما يعيد له هالة ضامناً أن حياته لن تُمسّ ما دامت هالة بعيدةَ عن متناول يد الوزير.

وافق عمار مرغَماً على اقتراح الضابط، واشترط ترك مرافقيه يغادرون أيضاً، وما إنْ وافق الضابط على شرط عمار حتى أبلغ أحدَ عبيده همساً، آمراً إياه بمغادرة المركب ميناءَ المدينة إلى مملكة أبيه فور وصولهم إليه دون انتظاره، ولم يُلقِ عمارٌ السلاح إلى آسريه إلا بعد أن نبأته أذنه، وسمع صوت ضابط مركبه يأمر بالمغادرة وقد اختلط مع صوت بكاء هالة ونحيبها وهي ترجوهم تركَها تفتدي ذلك الحبيب الغالي بنفسها، وأكبرت هالةُ تضحيتَه وخاصة بعد أن علمتْ أنه ليس أميرَ قلبِها فقط بل أميرَ بلادها أيضاً.

سيق الأميرُ عمارٌ إلى دار الحكومةٍ وأُذُنُه تتبع حركة مركبه، والتقى بالوزير شفيق الذي هدد وتوعّد، وأمر بتفتيش المدينة بيتاً بيتاً، ولما عادت عساكره بخفي حنين اتجه لمساومة عمارٍ بحنكة وخُبث، متظاهراً بتعاطفه مع المحبين ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئاً، فهالةُ الآن في رعاية والده ووالدته، وهو يقبع في السجن يسمع بكاء ومناجاة حبيبته بانتظار مصيره. مضى على ذلك أشهر عدة، ونسي مَن بالخارج عماراً ومحنتَه وكانت أُذُنُه تنقُل إليه أحوال هالةَ وما آلت إليه من الوهن والمرض وفقدان الشهية والنوم والحياة، فكلُّ ظنِها أن ذلك الحبيبَ ذهب ولن يعود، وهو الآن في العالم الآخر ينتظرها، وقررت الصيامَ إلا من الماء.

حزن عمارٌ على محبوبته وما آلت إليه، وقرر تسخير أذُنِه وما يملكه من قدرات جسدية للانتقام، وأن أولَ عملٍ فعَله هو تتبعُ الوريز شفيقٍ بالسمع، وإخبار ما يسمعه إلى أصحاب العلاقة من زملائه المساجين، وبعضِ ضباط الحرس الذين بدؤوا يتعاطفون مع عمار، ووصل ذلك إلى سمع شفيق الذي أمر بقتل عمارٍ بعد ثلاثة أيام طعاماً للذئاب، وكان ذلك قد دفعه إلى إغلاق أذنه بشمعةٍ وتوجه إلى الله تعالى بقلب سليم متضرعاً لإنقاذه إن كان ما يفعله خالصاً لله ولا يبغي غيرَ العدالة سبيلاً.

وما إنْ سمع غريب قصةَ عمار حتى ضمَّه إلى صدره وإلى قافلته وطلب منه إزالة الشمعة من أذنه حتى يكون بمقدوره التعاونُ على إخراج القافلة من هذا المكان وعودتِه إلى طريق القوافل، كما تعهد عمارٌ بالبقاء مع غريب ما دام بحاجة إليه، وبهذا عزّز غريب قافلته بقدرات غير عادية، ووصل بقافلته إلى أسواقٍ جديدة وغنية ضاعفت من ربحه، حتى أصبحت قافلته تنوء ببضاعتها النادرة وأموالها الوفيرة.

قطعت العصفورةُ الطنانةُ قصتَها وسألت الأميرَ خلدونَ الذي كان يستمع بشغفٍ إن كان يرغب بإقامة معسكره في واحة قريبة، لأن الشمس قاربت على المغيب، ودوابُّ القافلة أضناها المسير، فرد

الأمير خلدون واصفاً قصة التاجر غريب وما أفزرته بالقصص الشيّقة، وأنه لا يريد قطع حبلها، فردت العصفورة وهي تضحك بأنها ستواصل مسار قصةِ قافلة التاجرِ غريب أثناء السهرة بعد العشاء.

جلس الأمير خلدون قرب ماء الواحة التي تعكس ضوء القمر، واستدعى عصفورتَه الطنانةَ سائلاً إياها طَرْقَ مسامعه بقصصها الشيّقة، التي أنْسَتْه قسوةَ رحلته في هذه الصحراء الموحشة، فردت العصفورة قائلة: يا أميري وصلتْ قافلةُ غريب بعد خروجها من آخر مدينة إلى بلاد اسمها بلاد الأداما، وهم قوم قَدِموا من أماكن شتى بمساعدة الغرباء الأقوياء الذين زودوهم بكل أدوات النصر، فجرّدوا أصحاب البلاد الأصليين من كل شيء حتى الكلام، وكان نصيبهم القتل والنهب والتهجير والإبادة، حتى جيوشُ الجوار المعدّةُ للدفاع قد تم تحجيمها، ولم تَقْوَ على دَرْءِ الاحتلال والاستيطان، وانقلبت المفاهيم وأصبح للأداما أصدقاءُ متنفذون من أهل البلاد الأصليين ومن حكام الجوار الذين هادنوهم وعايشوهم، وبذلك أصبح المقاومون الشرفاءُ عرضةً للمطاردة والملاحقة وأحياناً للاغتيال والقتل والسجن، مما حدا بالمقاومة للالتجاء والتواري واعتماد السرّية سبيلاً لعملها، وازدادت الإدانة أيضاً من أعدائهم بتسمياتٍ ما أنزل الله بها من سلطان وأصبحت لتلك التسميات صدى مقبولٌ، في حين تم حذفُ التسميات الطبيعية لهؤلاء من القاموس، كالجهاد ومقاومة الاحتلال والقتال للدفاع عن النفس والأرض والعِرض وبينما كان ذلك يدور لم تَنْطَلِ تلك التسمياتُ على الشعب الذي لازم هؤلاء بالدعم والتشجيع وتبنيّ مواقفهم، وما زالوا يسمونهم بتسمياتهم الحقيقية، ولكنّ ما يملكه الأقوياءُ البعيدون وحكامُ الجوار من الأدوات الفعالة ضيّعت على المقاومين الشيءَ الكثير، وكان أبرزَها التفتّت، وتعددُ مشاربهم، وبث الأعوان بداخل تشكيلاهم، حتى أوصلوا أهل البلاد الأصليين إلى أوضاع مزرية في أراضٍ لا تصلح لشيء، ومنازلَ بدا عليها الفقر المدقع، وتحولهم للعمل لَدى الأداما المحتلين باعتبارهم أناساً من الدرجة الثانية، بل إن الأعمال التي يمارسونها لدى الأداما تجعلهم أناساً من درجات أدنى.

أقام غريبٌ معسكره في مكان بعد تجاوزه النهر، وقرر البقاءَ يومين للراحة وسبرِ الأوضاع حوله داخل بلاد الأداما، وبعد منتصف الليلة الأولى لوجوده سمع أصواتاً غيرَ عادية في معسكره، فانتفض بأعصاب مشدودة ليجد حارسَ مخيمه يأتي برجلٍ ضعيفِ البنية يجرُّه جراً حتى أوصله بين يدي غريب، وعرف اسمَه وأشياءَ أخرى تركَتْه يفكر، فما عرفه عنه يُضيف قدرة جديدة إلى القدرات المتوفرة لديه، فالكهل بعكازه، والأمير عمار بأذنه، وهذا السارق بأنفه فأنفُه جرَّه إلى مخزنِ الأطعمة في معسكره من مسافة لا يستهان بها، ولما كانت قصتُه تدخل في مقاومة الاحتلال فقد طلب من حارسه جلبَ طعامٍ مناسبٍ له إلى مخيمه، وبعد أن أكل وحمِدَ الله سرد على غريب قصةً لا تقل غرابة عن قصة الكهل أو عمار، فهذا يملك أنفاً شماماً كثيرَ الحساسية، حتى إنه ليميز الأثر ولو مرّ عليه أشهر، وقدراتُ أنفه سببتْ للأداما كثيراً من الارتباك، وللمقاومةِ كثيراً من الدعم، وكان كشفُه للعملاء والأعوان النصيبَ الأوفر. ولم يصدّق غريبٌ مقولةَ ميسّر إلا بعد أن جربه، ثم أمره بالانضمام إلى قافلته، وأنه سيعمل على إخفاء معالمَ عُرفتْ عنه حتى يكون بمنجى من التعرف عليه لدى اعتراض رجال الأداما لقافلته.

مرّ يومان على وجود قافلة غريب في مكان راحتها، وغريبٌ يسعى للحصول على ما يريده من معلومات عن قوم الأداما مستخدماً ما لدى قافلته من قدرات. وفي صباح اليوم الثالث سار غريبٌ باتجاهٍ وجده الأفضلَ ثلاثةَ أيام، يسير نهارَها وينام ليلَها في أراضٍ وعرة، كثيرة الصخور والوديان السحيقة والمزارع التي فقدت ماءَ حياتها بسبب تحول الينابيع التي كانت تغذيها إلى مزارعَ أقيمت لسكان مستعمرات الأداما، ووجد المتبقيَ من سكانها الأصليين ميالين إلى الابتعاد وعدم الاختلاط مع أي وافد، وقد واجَهَ غريبٌ الصدَّ لدى محاولاته التقربَ منهم أو إبداء المساعدة لهم، وأثناء مرورهم أمام أحد الأكواخ المتطّرفة مال عمارٌ وهمس في أذن غريب بكلمات، دفعت غريباً للوقوف أمام الكوخ ونزوله من العربة ودخوله الكوخ، وواجه لدى دخوله رجلاً منظره يوحي بالقوة، ولكن غلبه الإعياء والضعف

ونزيف في يده اليمنى، ولما اقترب منه غريبٌ وجده يرتعد والخوف في عينيه، فطَمْأنه غريبٌ ووعده خيراً، ثم أمر بنقله إلى العربة الصحية وإجراء ما يلزم، وأثناء حمله رجاهم حمل يده بأسطوانتها.

رجع غريبٌ إلى القافلة وخيالُه مشدودٌ إلى ذلك الرجل المجروح جرحاً عميقاً بيدٍ شُدَّتْ إلى اسطوانة معدنية لا تفارقها، وهو يبحث بين طياتها عن السبب وقد أخذه العجب، وألحّتْ عليه نفسُه وحبُه للاستطلاع، فاندفع خارجاً يَنْشُد العربة الصحية، فلاقى أجوبة غريبة تدخل في نطاق التصميم والإصرار على قتال الأداما المغتصبين، وزاد عجبُه وهو يرى ذلك التصميم من الجميع على وقف زحف الأداما، دون أن يكون لذلك أيُّ أثر في عالم الواقع، إذ إن الأداما استمر زحفهم واستيطانهم وكأنهم في عالم السلم والأمان.

وفي وقت متأخر من الليل دُعي غريبٌ إلى العربة الصحية، وسمع من أنيسٍ ذلك الرجل الذي أنقذتْهُ الإرادة الإلهية من موت محقق قصةَ يده، التي بمقدورها قذف ثقل متوسط أو ثقيل إلى مسافة كبيرة تصل إلى أبعاد متفاوتة داخل بلاد الأداما، وأنه بتلك اليد التي تتماثل الآن للشفاء كان قد اقتضّ مضاجعَ الأداما المغتصبين ومن يلف لفَّهُم من الأقوياء، قبل أن تنالَه يدُهم الآثمة بالإصابة والتجريد، بعد أن أخفقوا في أخذها وقطعها بسبب حمايتها بالتواري، وإنما الخوف كل الخوف من عملاء المغتصِب وأعونِه، ولولا هؤلاء لكان الأمن في صفه، ولبقي سراً من أسرار النضال، ثم التفت إلى مُنقذه وسأله عن المكان الذي يتجه إليه؟ فرد الكهل أبو العكاز قائلاً: إن النار يا ولدي تكوي المناضلين أينما حلّوا في بلادهم، ما داموا يقارعون المحتل ومناصريه، فالأقوياء في أرض الجوار، والأداما في أرض الأجداد، والتاريخ يعيد نفسه، فلا أنت في أمان ولا نحن في أمان، والآمن الوحيد هو الذي
لا يعرف لماذا وُلد، ولا من أجل أي شيء يعيش، أو الذي يستسيغ حياة الذل والهوان في ظل بحبوحة من العيش، أو مركز سياسي أو إداري يناله.

صمت الجميع برهة، ثم التفت غريب إلى الكهل ذي العكاز الذي أثار حنين الجميع إلى الحرية والشرف والإباء وسأله قائلاً: حان دورنا لنسأل من أنت؟ وكيف أصبحت عبداً وأنت تملك في داخلك ما لا يملكه من يظنون أنفسهم أحراراً؟ حتى وهم في قمة السلطة.. فتنهّد ذو العكاز تنهيدة جعلت مَن حوله يشعرون بعمق المآسي التي لازمته قائلاً: إني مُواطن من أكبر دولة من دول الجوار وأكثرها سكاناً وأقواها عسكرياً، تدير سياسة المنطقة بفعالية، وهي التي أقضّت مضاجع الأقوياء عندما اقتحمت معاقلَهم من أراضيها وأراضي الجوار، وأخرجتْهم عنوة بعمليات عسكرية استمرت عقدين من الزمن، وكان الانطباعُ السائد أن قيادةَ تلك الدولة العتيدة، قد وضعت أسس الاستقلال لمسارها ومسار من حولها ومَن حررتْهم من الجوار، واستمر ذلك حتى غاب مهندس تلك السياسة عن الساحة وانتقل إلى جوار ربه، فانفلت زمام الأمور، ومع مرور الزمن تدهورت الأحوال وتصدر المتهاونون وعاد الأقوياء إلى مواقعهم، وتنفس الأداما الصعداء وكانوا أكثر المنتفعين، بل من أجلهم تمّ كل ذلك، ولوُحقَ الأحرار، وشمل ذلك من بثتهم أمتُهم عيوناً لها داخل بلاد الأداما، والمفروض بكل الحالات أن يبقى هؤلاء خارج النطاق، ولكنّ المصالح المتبادلة دفعتهم لكشف أوراقهم فلوحقوا وتم تشريدهم، وكنتُ ممن شمِلَهم الاعتقالُ والبيع في سوق النخاسين، وخرجْتُ من ذلك بعكازي تلك التي تضافرت جهودٌ وعقولٌ كثيرة لتكونَ بتلك التقنية الفاعلة، وصافرة لها رنينٌ مُثَبِّط للمعنويات والهِمَم زُوِدْتُ بهم في حينها، حتى أكون فاعلاً في عملي، وبقيا سراً مكتوماً على الأداما والأقوياء حتى على أصحاب النفوذ في بلدي، مما أتاح لي فرصة الاحتفاظ بهما وأنا أباع.

عندها سأل غريبٌ ذلك الجمعَ الغريبَ العجيب إلى أين سيصلون؟ وماذا يرغبون؟ فرد ذو العكاز: نحن تمرّسْنا بالنضال، ولدينا أدواتُه، لكنّ ما ينقصنا هو المال والأرض، لتجدَ الأحرارَ والثوارَ ينتظرون الدعوة وقد اكتملت أدواتها، والمكانُ الذي نحن فيه يضم عواملَ إيجابيةً دافعةً لقتالِ الأداما لا تتوفر بغيره، بما فيهم الأقرب والأشرف من الجوار.

التفت غريبٌ إلى سامعه وأبدى استعدادَه لتزويدهم بما يحتاجونه من مال وغيره، بعد أن اقتنع بالفكرة المتأصلة في نفوسهم، ولمس صَدى ذلك في وجوهِ مرافقيه، الذين بدؤوا العمل بإنزال حوائجهم لإقامة نواةٍ لمقاومةٍ فاعلةٍ أساسُها الأرض والفرد، وعُدّتُها الشعب بأسره، ممتنعة عن الأداما وعملائهم والأقوياء.

ولما هم غريبٌ بالعودة نحو بلده، سمع صوتَ عمارٍ يطلب منه حَمْلَه إلى مكان أقربَ إلى مملكة أبيه، بغيةَ طمأنة أهله ومَن أحب، ووعد بعدم التواني وبدعمِ المقاومة ما دام على قيد الحياة.

وبهذا يا أميري انطلقت المقاومةُ وشمل صداها العالمَ بأسره، بعد أن يئس الجميع من ظهورها، معتمدة على غريبٍ في التمويل وعلى أهل المنطقة في الوقود، تقضّ مضاجع الأداما وعملائهم والأقوياءَ على السواء.

حينها سأل خلدون عصفورتَه الطنانة، هل لتلك المقاومةِ قدرةٌ على إخراج الأداما المحتلين من أرض الأجداد، بعد أن قبلهم سُكّان تلك الأرض أسياداً ومقيمين؟ فردت العصفورة قائلة: يا أميري أن القائمين ركبوا جيلاً أنهكتْه مقارعة هؤلاء وهؤلاء فاستكانوا، ولن يجدوا من جيلٍ قادمٍ ما وجدوه في جيلهم، بل سيجد الجيل القادم النورَ والأملَ في هؤلاء المقاومين، ولن يتوانى عن سحب البساط من تحت الأداما ومن يدعمهم، وإبقاءُ شعلة المقاومة هو ما يحتاجه الجيل القادم من المقاومين، حتى يصل هذا الجيل ويكون فاعلاً في تحويل مواقفِ المقاومين من البقاء من أجل البقاء إلى البقاء من أجل تحرير الأرض والإنسان.. وهنا سأل خلدون عصفورته: هل الأداما والأقوياء غافلون حتى يتركوا تلك الشعلةً تنمو لتصبح ناراً تحرِقُ وجودهم وتُزيل كل أثرٍ لهم؟ وما قصةُ مهندس سياسةِ التحرير الذي نبعت سياسته من أرضه ببعيدة.. فما إنْ مات حتى انقلب رفاقُ سلاحِهِ وحوّلوا بلدهم من قمة الحرية والشرف والإباء إلى حضيض التسيب، ينفّذون ما يخططه الأقوياء تاركين للآداما والأقوياء العبَثَ بمقدرات الأمة بشكل يصعب تصديقه.. فردت العصفورة متململة قائلة: صحيح أن الشعلة التي يحملها المقاومون قد انفرد بها مجموعة دون غيرها نتيجة ضغط

الأقوياء، وأصبحت شعاراتهم الأشمل خجِلة، والخوف كلُّ الخوف أن تُخْنق تلك الشعلة قبل أن تتمكن من تعميمها، لأن المصالح وضيقَ المناورة أخذت تدخل في نسيج الأقرب من الجوار، الذي يسهلون حركتهم وهم الأقدر على إطفاء الشعلة وقتل الأمل.

صمتت العصفورة، وشعر خلدون بأن عمق أسئلته أدخل العصفورةَ في حقائقَ كانت غافلة عنها، وشعر بالخوف يتسرب إلى عمق ذاتها، فالتقطها بحنان وضمّها إلى صدره وهو يسمع دقات قلبها بوضوح، ثم أدخلها جيبَ سترته قائلاً: علينا يا عزيزتي بالنوم، والأملُ كلُّ الأمل في خالق الخلق، فهو وحده القادر على حماية المناضلين في مواقعهم ما دام هدفُهم الحقَّ والعدلَ وإعلاءَ كلمة الله، ومهما طال الليل بظلامه فالفجر آتٍ لا محالة، فعلينا بالنوم بانتظار الصباح الجديد.

وفي صباح اليوم التالي صحا خلدون وتلمس جيبَ سترته باحثاً عن عصفورته فيها، ولما لم يجدها انتفض من فراشه يناديها باسمها الذي عرّفته به في أول لقاء لهما، مردداً سَماحُ أين أنت يا عزيزتي، واغتبط حينما سمع صوت ضحكتها قائلة: هل
ما زلتَ تذكرُ اسمي، فأنا هنا على شجرةِ النخيل أمارس شعائري الدينية بإقامة الصلاة والتسبيح، والدعاء لرحلتنا بالتوفيق.

تمتم خلدون بشكر الله على تلك النعم التي أسبغها عليه والسعادة تغمره، ثم أقام صلاته وختمها بالدعاء، وانطلق برحلته يجوب البراري والقفار نحو جبال بلاد الهِيم، هدفُه سيف الرحمن، المرصود في كهف المَرَدة في حاضرة الأرغن، للقضاء على الشيطان المسيطر على مملكة أبيه في بلاد الوئام، المتمثل بالوزير الحبشي، ولما كان سيرُه في أراض صحراوية لا نبات فيها ولا ماء، فقد أضناه المسير وملّ رؤيةَ الأفق الذي لا نهاية له، وعصفورتُه لا تجد في هذا الجو القاري سوى الاستكانة في جيب خلدون تتفيأ بها، وتسمع دقات قلب ذلك المؤمن، وهي ترجو الله أن يمُنَّ عليهم بالخروج من هذه الصحراء غير المتناهية، ففي النهار حرارةٌ مجهدة، وفي الليل يبحث خلدون عن مكان يأوي إليه لا تشمله التغييرات السريعة بسبب حركة الرمال.

واستمر على هذه الحال حتى نفِدَت منه مؤونةُ رواحله، وبدأت هذه الرواحل بالنفوق الواحدة تلو الأخرى، وكان كل نفوق يتبعه توزيع الأحمال على الرواحل المتبقية، وكان آخرَها حصانُه «العُبيّان» فحزن عليه حزناً شديداً وخرج من ذلك بفقدانه جميع رواحله ولم يبق منها سوى ناقتِه البيضاءِ التي أثارت إعجابَه بصحتها وقوتها رغم نضوب طعامها وحَمْلِها كلَّ ما بقي لديه من مؤونة وأمتعة حتى أصبحت بما تحمل كهرم يتحرك.

ورغم تلك المعاناة بقي فم خلدون لا يفتر عن التسبيح والدعاء، وطال عليه المسير جارّاً ناقته البيضاء، وشعر بالضَّعف والإعياء وهو يبحث بين خطوط خريطة الشيخ ضياء الدين عن المخرج، ولما كان المخرج الذي تشير إليه الخريطة يبعد مسافةً لا تقل عن أسبوع سيراً على الأقدام، فقد كانت أقدامُه تنوء بحاملها وترجوه الراحة، حتى وصل إلى مكان يحتاج إلى بذل جهد أكبرَ للخروج منه، فالرمال متحركة، والصعود عبرها مُضنٍ، وخريطةُ ضياء الدين تحذّره من التهاون.. ولما لم يتمكن من المتابعة جلس وفمُه لا يفتر عن الدعاء، وشاهدت العصفورةُ الطنانة عبراتِ خلدونَ تنهمرُ على خريطةِ ضياء الدين، فانسلّت من جيبه وسألته: هل أصابه الضعف والقنوط إلى هذا الحد؟ فرد لا قنوطَ من رحمة الله، ولكنّ ما أشاهده وألمَسُه هو النهاية، فلا أرجلي قادرة على حملي، ولا جسمي قادر على مقاومة الحر اللاهب في النهار والبرد القارس في الليل، فقد بدأتْ مقاومتُه تنكفئ مع كل صعود على الرمال، الصعود المقبل سيتبعه صعود آخر، وهو يشعر بكل صعود مهما كان هزيلاً بالعجز عن صعوده، وأنه سينهار حتماً مع كل صعود يقابله فكيف له بما تحفل به جنبات الخارطة من تضاريس.

تركت كلماتُ خلدونَ الحزنَ والأسى والخوف في نفس العصفورة، وأخذت تفكر بحلٍ يُخرج أميرها من ضعفه، وتقلبتْ معها الأفكارُ وهي ترى أميرَها مستلقياً على الأرض باسطاً يديه والناقةُ البيضاء في المكان تقيه أشعة الشمس وتتحرك مع حركتها، فغادرته وهي تطير صعوداً تبحث عن مُنقِذٍ في جنبات تلك الصحراء المترامية

الأطراف، ولم تر أيَّ بارقة، فلا ناسَ ولا واحةَ ولا نهايةَ لتلك الصحراء، ودب اليأس في نفسها، وقررت وهي عائدة إلى أميرها عدمَ تركه يموت، فإن كان
لا مناصَ من ذلك وإرادةُ الله قد أنهت حياتَه فلن تبرحَه حتى تجدَ السكينةَ في قربه. ولما عادت وجدته يناديها، فقالت: لبيك يا أميري، أنا بين يديك، فسألها عن سبب مبارحته وهو في أحلك ساعات حياته؟ فقالت: كنت أبحث عن مخرج لكلينا، فقال لها: يا عزيزتي لك الخيارُ بتركي والنجاةِ بجلدك، فقُدرتُك على التحول والتماس الطرق تخرجك مما أنت فيه بخلاف قدرتي المحدودة، وخروجي من أتون الصحراء مستحيلة، فلا مناصَ لكلينا من البقاء حياً.. فردت العصفورة أن حياتها مرهونة بحياته. وهنا سألته ألا تعتقدُ بأن الله قد اختارك لإنقاذ البشرية، ولولا ذاك لما سهَّل عليك الصعاب، ومكَّنك من الحصول على القَوس العجيب وأَسهُمه النارية؟ فقطعت حديثَها ثم نظرت إلى الناقة التي كانت ترمُقهم بعينيها الواسعتين قائلة: الناقة.. الناقة يا عزيزي لماذا غفِلنا عنها؟! فقال خلدون: الناقة، ما بها الناقة؟ إنه تنوء بما تحمل وتقوم بواجبها دون أن تشكو، الناقة هي سفينة الصحراء والأمل المرتجَى، وإني اقترح للنجاة التخلصَ مما تحمل على ظهرها واعتلاءك مكانها حتى يمكنك تجاوز ما أنت فيه، بينما كانت العصفورة تقترح كانت الناقة تستمع باهتمام وترقب..

فكّر خلدون ثم قال: والذي على ظهرها من أسباب حياتنا كالمؤن والماء.. كيف لنا العيش دونها؟ فقالت العصفورة: إن محنتنا تفرض علينا ما أقترحه والإبقاءَ على مؤونة وماء لرجل واحد تمكّنه من العيش لأيام قليلة قادمة، وتركَ الناقة تأتي على الفائض حتى تقوى على المتابعة، ثم أكملت اقتراحها بالسير ليلاً للإقلال من صرف الماء فقال خلدون: ألا تدركين أن المسافة التي بقيت من الصحراء يلزمها من الوقت ما يتجاوز الأسبوع، إنْ سارت الناقة دون معوّقات وبكامل طاقتها، وكل ما لدينا من ماء لا يفي بالغرض ليوم أو يومين على أبعد

تقدير.. فقالت العصفورة: ألا تؤمن بالقول المأثور الذي يقول: ما بين طرفة عينٍ وانتباهتها يغيّر الله من حال إلى حال.

فكّر خلدون ووجد أنه حلٌّ غريب ولكنه الأفضل، وتساءل كيف تفتّق عنه ذهن سماح؟ أهي بكامل عقلها أم أنها تفكر بعقل عصفورة طنانة.. ثم تساءل كيف يركب ناقةً قد أضناها المسير والجوع والعطش مع حمولةٍ فاقت مساحة ظهرها، ووزنٍ فاق قدرة أمثالها، ولكنه استمر بمحاكمة الحل في عقله وجد أن لا ضيرَ من تجربته، ولو كان نجاح ذلك بالمعطيات المتوفرة غير مضمون.

قام خلدون بتنفيذ خطة العصفورة ووجد من الناقة العجب حينما نفّذت هي أيضاً شطر الخطة المناط بها، فالتهمت كل ما وُضع أمامها من زاد وماء، ولم يأت الليل إلا وكان خلدون قد استكمل حاجات رحلته، وبدأت بطابعها الجديد حينما بدأت الناقة بالمسير بعد صلاة العشاء، ضامّة على ظهرها خلدون بالإضافة إلى ما بقي من ماء وزاد وأمتعة، وكانت بدايةً عادية ككل الرواحل، ولكنْ أخذَ سيرُها بالتسارع كلما أوغل الليل وزادت برودة الطقس، حتى أصبحت سرعتُها فائقةً بشكل يفوق كل من دبّ في الصحراء، تطوي وِهادَها ووِديانَها بسرعة مدهشة، ذكّرته بكلام صديقه محمد عن الإمكانيات التي تتحلى بها الناقة، وشكر هذا الصديق على رد جميله، ولم يمض الليل حتى تراءت له عن بعد نهايةُ الصحراء وبدايةُ الأرض الخضراء التي كانت منذ ساعات حلماً بعيد المنال، فأخذتْه نشوةُ الانتصار وحمِد الله بعمق على ما جرى وما يجري، وتبادر إلى ذهنه قول العصفورة أنه في طرفة عين يبدل الله من حال إلى حال، ولم يَدُر بخَلَده اجتيازُ ما بقي من الصحراء بهذا الوقت القياسي، فقد وصل مع ضوء الصباح، وسنحت له منذ أمدٍ طويل فرصةُ إقامة مخيَّمِهِ على أرضٍ خضراء، فدبت روحاً متجددة في رحلته.

وما إن استقرّ خلدون حتى دقّقَ في خطوط الخريطة وعرف مكانَه على أرضِ بلادِ الهيم، والخريطةُ تشير إلى خانٍ للنزلاء يَبعدُ كثيراً عن موقعه نحو الشرق، ولما كان مكانُ وصوله موحشاً، فقد طلب من عصفورته الصعودَ إلى الأعلى والبحث عن ذلك النُزُل، وبعد وقت ليس بالقليل عادت العصفورة وأنبأت بوجود نُزُلٍ يبعُد مسيرةَ ضوءِ النهار إذا جدّ بالمسير، وهو على ضفة نهر كبير.

توجَّه خلدون نحو النزل الموصوف بأرجل متثاقلة، يجر ناقته موغلاً في أرض خضراءَ غنيةٍ بأشجارها وجداولها الدافقة، حتى وصل مع غياب الشمس والإعياءُ قد بلغ مداه ـ إلى نُزلٍ مترامي الأطراف، فوجد أبوابَه موصدة، فطرق بابَه الرئيسيَّ فظهر رأسُ راعِيهِ من فتحةٍ في غرفة منارة فوق سورِهِ يسأل، فأجابه خلدون

بمراده، وعرف بأن باب الخان مغلق أمام الجميع من المساء حتى الصباح، ومن يأتي بعد غياب الشمس يدفع ثلاثَ قطعٍ فضية أو يبقى خارجاً حتى ظهور الشمس.

نال صاحب الخان الفضيات الثلاث وعرف قدرةَ خلدون المالية فأنزله في غرفة فيها كلُّ أسباب الراحة، بموقعه المميَّز والمُشرِف على طرق القوافل، وقدّم له عشاءً دسِماً، وفي الليل شعر خلدون بأن المرض بدأ يتملكه، فاقترح على العصفورة البحثَ في جنبات الغرفة عن مكان يُودِع فيه نقودَه، لإحساسه بأن الحُمَّى ستُفقده وعيَه لأيامٍ قادمة، فراعَ العصفورةَ ما سمعتْ وأخذتْ تحثُّه على المقاومة، واقترحت إحضارَ طبيب، فأجابها والقلقُ يساوره على حياته قائلاً: إنّ ما لديه من مال سيضمن حياته، ويدفع صاحبَ الخان ومَن يقوم على رعايته إلى حمايةِ حياته ما دام مالُه بعيداً عن متناول أيديهم، حينها اقتنعت العصفورة وقامت بتحويل نفسها إلى حية تسعى حول الشقق المنتشرة بين أحجار بناء الغرفة، ثم دعته إلى زحزحة حجرٍ ضعيفِ التماسُكِ مع ما يجاوره داخل زاويةٍ قريبة من قدمِ سريرِه الخشبيِّ العريض.

أَوْدعَ خلدونُ نقودَه في ثَغْرٍ عميق، وأنزل عليه الحجر بإعادته إلى مكانه، ثم دعا صاحبَ الخان إلى إحضار طبيبٍ ما لأنّ حالته الصحيةَ لا تبشر بالخير، وحدث
ما توقَّعه خلدون إذ فَقَد وعيَه لأيامٍ عشرة، وشاهدت العصفورةُ التي كانت متواريةً داخل الغرفة كيف سعى مَن قام بخدمته بالبحث والتمحيص في أمتعة خلدون
وما يرتديه وما كان بحوزته من مال عند ارتياده الخان، وقد شمِلَ البحث أركانَ الغرفة، ولم يستهوهم ما يحمل من أسلحة، حتى أفاق من غيبوبته، وشاهد مَن كان بقربه وهو يسعى في رعايته بكل جُهده ليرى سَعْيَه قد تكلل بالنجاح، بغيةَ رؤية نقودِ خلدون تسيلُ بين يديه، وقد شمِل ذلك عدا الطبيب المداوي راعيَ الخان وعامِليه ومَن قام على خدمته، وقد هلّل الجميع لدى رؤيتهم خلدونَ يعود إلى وعيه، وكلٌّ منهم يصف عملَه والجهدَ الذي بذله لإنقاذ حياته باعتباره الأفضل

والأجدى، ولم تمض أيامٌ قليلة حتى صار الجميع أصدقاءَ خلدون، يُثنون على قوته ودماثة أخلاقه وكرمه، كلٌ يعرض خدماتِه وهو لا يعرف بأن أعين خلدون بعصفورته شاهدت حركاتِ وسكناتِ كلٍ منهم، وقد وصفت العصفورةُ ما كان ينتابها عند رؤيتها الطامعين وهم يفتّشون الغرفة بحثاً وتمحيصاً، وخوفَها من أن يتمكن أحدهم ويجد بغيته، عندها لن تكون لحياة خلدون أيةُ قيمة لديهم، وتفقِدُ بذلك أيَّ أمل بإنقاذه، ولم تذق طعم الاستقرار والراحة إلا بعد أن مرّت الأزمة بسلام، وشاهدت فمَ خلدون يتحرك بالنطق، وأثناء عرضها الأحداث ذكرت أمراً حيرّها ونال من تفكيرها، فقد أبلغ الطبيبُ راعيَ الخان بأن إصابةَ خلدون بضربةِ شمسٍ تعني أنه كان في الصحراء التي تبعد مسيرة أيام قبل ساعات من وصوله إلى الخان، لأن تلك الإصابةَ لا تأتي من فراغ، وبلاد الهيم بلاد ينعدم فيها ذلك المرض، كما أعطته صورة عمَّن كان يسعى لرؤية خلدون معافى، وخصت بالذكر امرأتين وشاباً في مقتبل العمر لم ينل من كرم خلدون إلا الشيء اليسير، وهو الذي لازم فراش خلدون في أحلك أيام مرضه، ولم يقُم بأي عمل مشبوه، وسمعت أثناء ذلك حِواراً علمتْ من خلاله حاجةَ ذلك الشاب إلى مبلغٍ يسير يُنهي به حالةَ الاستعصاء التي يعاني منها وتمنعُ زواجَه ممن يحب.

خرج خلدون من غرفته في الخان لأول مرة منذ شهر يتنقل في أرجاء الخان، بعد أن تماثل للشفاء وهو يحمد الله على نجاته، وبينما كان كذلك صادف شاباً تقدَّمَ منه يهنّئه على نجاته ويدعو له بدوام الصحة وطولِ العمر، وأثناء ذلك سمع من عصفورته التي كانت بجيب سترته تهمس بأن مَن يراه أمامه هو الشاب الموصوف، فتدارك خلدون وسأل الشابَّ عن حالته وما يمنع زواجَه، ورأى الغرابةَ وقد ارتسمت على وجه الشاب، واصطبغ لونُ وجهه بحمرة الخجل، ثم أطرق وهو يقول بأنَّ طمع والدها أضاع فرصة زواجه، أنّ مبلغَ مئةِ فضيّةٍ المطلوبةِ ليس لديه إلا عشرون منها، فضحك خلدون لضآلة المبلغ وقال: إن ذلك يساوي فقط ديناراً ذهبياً واحداً وهذا متوفر لديك، فلمعتّ عينا الشاب وانتصب رأسُه يحدّق بخلدون متسائلاً، فرأى يد

خلدون تحمل ذلك الدينار وتضعه في جيبه، ثم تنتقل تلك اليد لتحمل ديناراً آخرَ ينتقل من جيب خلدون إلى يد الشاب مترافقاً بكلمات التهنئة، وأنّ ما في جيبه هو من أجل المَهر، وما في يده لتسديد تكاليف ذلك الزواج، وكلفه برعاية ناقته بعد تزويده بمبلغٍ يساوي رعايتَه لها.

لم يصدق الشاب أنه حصل على مَهر محبوبته، فأخرج من جيبه قطعة بلورية موضوعةً بأنبوب خشبي متدرج قائلاً: يا سيدي إنّ هذه الزجاجة السحريةَ لها مفعول قوي بتقريب الأشياء مئات المرات، وهي مُلك جدّي البحّار الشهير جاموس، وقد ورثتُه مع أشياء أخرى هي أفضلها، فحافظتُ عليها، واليومَ قررتُ عرضَها للبيع، ولما لم تأتني بما أرغب لتغطية نفقات زواجي رأيت أنّ أفضلَ مصير لها هو إعادتها والاحتفاظ بها بين المقتنيات، وكي لا أشعرَ بثِقل ما غمرْتني به من عطائك، أرجو منك القبول بأخذه كي أخفف عن نفسي ما أحسّ به من
ثقل فضلك.

ضحك خلدون وقدّر من الشاب هذه النفسَ الأبية، وأخذ منه ذلك الشيء وهو يقول لنفسه إنّ الشاب لهو مدرسة في الشموخ والإباء، وإن الشيطانَ لَيعجزُ عن إيجاد ثغرة ينفذُ منها إلى داخله، وهو الضائع بين أشواك الفاقة والحاجة، فطوبى له ولأمثاله الذين لو علم الطامعون والمهووسون بما سينالونه من رزق،
لما تطاولوا وحصلوا عليه بطرق ملتوية تعود عليهم بالعار في دنياهم، وبالنار تحرقهم في آخرتهم.

في اليومِ التالي غادر خلدون الخان مودَّعاً بالحفاوة والتكريم قاصداً حضارة الأرغن، وصدَى كلام الشيخ ضياءِ الدين وتحذيراته ما زالت تطرق سمعه، وخاصةً عندما وصف الجبالَ الشاهقة والطبيعةَ القاسية والثلجَ الدائمَ بين جنباتها وعلى جبالها، وصعوبةَ الوصول إليها بالرواحل أو على الأقدام، حتى وصل إلى نهر هائج يفصل بين السهول المنبسطة والجبال الشاهقة، ولما لم يجد مكاناً يعبر منه إلى الضفة الأخرى أطلق عصفورته لتبحثَ في جنبات النهر عن جسر أو

معبرٍ يُوصِلِه إلى الضفة الأخرى، فطال انتظار عودتها وبدأ القلق ينتابه ويجري في عروقه مجرى الدم، وأخذت حرارة جسمه بالصعود حتى شمِلت الرأس وازدادت دقات قلبه، وشعورُه ينْبئُه بخطرٍ ما تتعرض له تلك العصفورة، فجال ببصره في أرجاء المنطقة، فكان يصطدم بكثافة أغصان أشجارها الباسقة، فارتأى الصعودَ على إحداها، وقام بتنفيذ الفكرة على الفور، وكان صعوداً مضنياً لأنه لم يترك على الأرض شيئاً مما يحمل، ولما استقر في أعلى الشجرة أخذ يجول ببصره في سماء المنطقة وفوق رؤوس أغصان أشجارها، وحار بأمره فنظرُه لم ينبئه بأي شيء لقِصر قدرةِ ذلك النظر وصِغر عصفورته الطنانة، حينها تذكّر مقولة الشاب الذي وهبه الزجاجة السحرية التي تقرّب الأشياء، فاستلّها من جيبه ونفّذ تعليمات الشاب بإزالة غطاء فوهتها وسَحْبِ أعضائها ووضعها على عينه، فراعه رؤية الأشياء البعيدة بدقة متناهية، فجال بها مجرى النهر، وقفز قلبه عندما رأى عصفورته يتبعها طائر جارح لا يترك لها مجالاً للطيران المستوي ويبقى مجال طيرانها محدوداً، وهي تناور بخفة بينما هو يجد بمناوراتها صعوبة في إلحاق الأذى بها، فلم يجد خلدون مناصاً من استخدام قوسه النادر وسهمِه العجيب وزجاجتِه السحرية لإنقاذ عصفورته، قبل أن تنهار وتكون لقمة لهذا المخلوق العنيد.

شكّل خلدون فريقاً متكاملاً عندما استخدم زجاجته السحرية للرؤية مثبّتاً إياها على رأس قوسه، ووضع سهمه بين جسم القوس ووتره، وأسند ظهره إلى غصن الشجرة وبقي على ذلك حتى حانت له فرصةُ ظهورِ الطائر بوضوح، فأطلق سهمه وشاهد شهاب ذلك السهم من الخلف بعد خروجه من يده ليستقر بجسم ذلك الطائر، الذي هوى فاسحاً المجال للعصفورة كي تطير نحو خلدون، ونظرُها يجوب الأرجاء والخوفُ يلفها من ظهور جائع جديد من بين الأشجار، حتى دنت من مكان خلدون وشاهدته يلوح لها بقوسه وصوتُه يلهَج باسمها، وما إنْ وصلت حتى استقرت بجيب سترته دون كلام أو إيحاء، وخلدون الذي أخذ يهبط الشجرة يضحك ملءَ شدقيه وهو يحمد الله الذي هيأ له سبُل نجاتها، وما إنْ وصل إلى الأرض حتى دعاها

للخروج وإبلاغه بمشاهداتها، فأبت ترجوه تركَها وتُعلمه بتورُّمٍ في أجنحتها وصداعٍ في رأسها وأنها لن تبرح مكانها ما دام في ذلك المكان الرهيب، فسألها داعياً إياها للإجابة وهي في مكانها، فأعلمَتْه بأن في مكان سقوطِ السهمِ الذي جندل الطائر جسراً خشبياً مقنطَراً.

سار خلدون على محاذاة النهر بحذر شديد وسهمه في قوسه يحسب لكل خطوة حسابها، حتى شاهد عن بُعد قنطرةً خشبية توصل إلى حاضرة الأرغن ذات الطبيعة القاسية، وقبل أن يعبر الجسر المقنطَر كان نظرُه يتبع النهر الهادر وضفافَه الملأى بالحيوانات وأبرزها الدب، ولما تأكد من إمكانية العبور دون عوائق مرئية تأبط وحمل حوائجه وبدأ العبور بتأن وحذر شديدين، مستنفراً كلَّ حواسه وهو يرقب كل حركة وسكنة، وما إن وصل إلى منتصف الجسر حتى بدأ الخوف ينتابه من ظهور عدو ما من مكانٍ لا يتوقعه، فدعا عصفورته إلى التمركز في ياقة سترته للمراقبة والتحذير.

خرجت العصفورة الطنانة من جيب سترة خلدون متململةً تشكو ثِقل المهمات التي تُوكَل إليها، وهي التي أقعدها الخوفُ واستقرت بين جنبات ياقة سترة خلدون من الخلف، فشاهدت المكان الذي كاد أن يكون نهاية مطافها، فأغلقت عينيها بكلتا يديها للحظات تتمتم بالأدعية التي تحفظها، راجية من الله تعالى إنهاء هذه المهمة التي لا نهاية لها على خير.

عبر خلدون الجسر وبدأت رحلتُه بحاضرةِ الأرغن التي في جبالها كهفُ المَرَدة والمرصودُ من قبل الشيطان، وبداخله سيفُ الرحمن المبعَدُ والمحروسُ من قِبل ثلاثةِ رجالٍ أشداء لا قبل لأحد بمقارعتهم، إلا مَن أذِن له الرحمن بتخليص البشرية من شرور الشيطان، في تلك الحقبة التي بسط بها أذرُعَه في كل الأرجاء، وبَعد دخوله حاضرةَ الأرغن بقليل عثر على سهمه مستقراً في جسم طائر ضخم ما زال حياً يئن من الألم، فاستجاب خلدون لنداء الضمير وأسرع لنجدة المصاب أمام خوف العصفورة وتحذيرها، وقام بإخراج السهم من جسم الطائر والعمل على مداواته بالمتوفِّر لديه من عقاقير،

والطائرُ يرصد حركات خلدون غيرَ مصدِّق ما يلمَسُ ويرى، حتى استكمل خلدون تضميد جراح الطائر، ثم هيأ طعاماً للجميع وكان نصيب الطائر سمكةً طرية تم اصطيادها من النهر القريب، وأقام خلدون مخيَّمَه فوق شجرةٍ كبيرة يحدوه الأمل للولوج إلى حاضرة الأرغن في صباح اليوم التالي، ولم ينَم إلا بعد أن وضع الأغصانَ اليابسة والأشواك في مطلع الشجرة لتكون بمثابة إنذار عندما تتكسر وتحدث صوتاً لدى الصعود عليها.

وبعد هدوء الغابة بسكانها من الحيوانات الكثيرة والمتنوعة إلا من بعض الأصوات لطيورٍ ليليةٍ ناعقة، أو لهوامٍ أرضيةٍ نائقة أو صافرة، أو لحفيفٍ من هواءٍ خفيفٍ يقوم باختراقٍ لأغصان أشجار الغابة وأوراقها، سمع جلبةً مُخالفةً لما كان يسمعه، فأطَلّ برأسه نحو المكان المسجَّى فيه الطائر الجريح فوجده خالياً، ولما كان الطائر لا قدرةَ له على الحركة فقد خمّن خلدون بأن هناك من نقله بإرادته لكونه استجاب لناقليه دون إنذار، وشعر خلدون بأن اختفاء الطائر أزال عقبة عن طريقه، ولكنّ نقْلَه دون ضجة آثار تفكيرَه لإعادة حساباته، وما إن أطل الصباح برأسه حتى جال خلدون ببصره في أرجاء الغابة مستخدماً زجاجته السحرية، ولم يهبط من مخيمه فوق أغصان الشجرة إلا بعد أن شعر بالأمان، ثم بدأ يتفحص الآثار المتروكة على الأرض بغية كشف انتماء مَن نَقَل الطائر الجريح، ولما كانت الآثار غيرَ واضحة لكثافة أوراق الشجر المنتشرة على أرض الغابة، فقد عَدّل من خططه واستأنف سيره متلمساً خطوطَ خريطة الشيخ ضياء الدين، حذِراً مستنفراً حواسَّه واضعاً عصفورته في مكانها داخل ياقة سترته ونظرها موجه نحو خلف خلدون ونحو الزوايا الميتةِ في جنباته لتحذيره عند ظهور خطرٍ ما.

سار خلدون في تلك الغابة المديدة ثلاثةَ أيام بلياليها، يسير نهارَها وينام ليلَها دون عوائقَ تُذكر، ووجد غَرابةً في ذلك وهو الذي كان يظن أن ما سيلاقيه في حاضرة الأرغن يفوق كل ما لاقاه في رحلته المضنية من مشقة وصراع ومفاجآت، وخاصة في تلك الغابة التي

خصها الشيخ ضياء الدين بالتحذير، وأدرك أن عدم مصادفته لسكانٍ من الجنس البشري رغم توفر الحاجات المثلى للحياة البشرية، تعني استحالةَ الحياة في ظل أمرٍ ما يقيم فيها غيرَ مرئي وغيرَ ملموس، ولما كان هو عابراً لا رغبةَ له بالإقامة فقد سُمح له باجتيازها دون عوائق، وظل يبحث عن سبب السماح له باجتياز تلك الغابة الفريدة بأمان، باتساعها وكثافة أشجارها وتنوع حيواناتها، ويقدّر تارة بأنه عابرُ سبيل لا مطمعَ له فيها، وتارة لقدرته الأمنية الفائقة، وتارة أخرى لما يملكه من سلاح فتاك، وتارة لإنقاذه حياة الطائر.. وبقي على تخميناته حتى وصل إلى طرفها الآخر، عندما لاقى أول صخرة فتسلقها صعوداً نحو قِمة مرتفعة لا نباتَ فيها حتى وصل إلى قمتها، فظهر له جبلٌ عال بتضاريسه الكثيرة والمتنوعة والمكسوة بالثلوج، وتنتشر بين أرجائه المغاور الكثيرة الظاهرةُ للعيان، فأقام على تلك الرابية مخيَمَه يرقُب من على ظهرها ما يجري حوله، ولفت نظرَه المساحةُ المترامية للغابة التي اجتازها، فأخذه الوهم وهو يضع باعتباره العودةَ والمرورَ عبرها لو حالفه التوفيق وحصل على سيف الرحمن، وراجع بفكره ما عاناه أثناء المرور عبره بالترتيبات الأمنية التي اتخذها لنفسه وسيرِه البطيء، وشعوره بالأخطار المُحدقة في كل خطوة يخطوها، حتى إنّ تنفيذه لشعائره الدينية كصلواته الخمس كان يؤديها على أغصان الأشجار، ولم يشعر بالأمان النسبي إلا بعد وصوله إلى تلك الرابية وصلى لأول مرة منذ أيام على الأرض وبالاتجاه الأمثل.

نام خلدون تلك الليلةَ على الرابية، وقد اقتسم مع عصفورته فتراتِ الحراسةِ كما اعتادا اقتسامها في فترات سابقة، وفي الصباح استأنف خلدونُ السيرَ صعوداً حتى أخذتْ قدماه تغوصان في الثلج مضيفاً مشاقَّ جديدة، واضعاً نصب عينيه خطوطَ خارطةِ ضياء الدين للوصول إلى كهف المردة الموجود فيه السيف النادر سيف الرحمن، وبينما هو على ذلك قطع الهدوءَ صوتُ هديرٍ يجوب الأجواء، فرفع رأسه نحو السماء وشاهد طائراً بأجنحةٍ واسعةٍ تفوق كلَّ ما رآه وسمعه في حياته، فانتحى جانباً وقد تسمرتْ عيناه وهي تلاحق الطائر حتى

حطَّ في جوف جبلٍ مجاور، فأخرج على عجَلٍ زجاجتَه السحريةَ واستكمل ترتيبات تجهيزها ووضعها على عينيه، وبحث عن المكان الذي حطَّ عليه الطائر لم يجد له أثراً، فجال بصره في تلك الأرجاء باحثاً ومدققاً حتى ملّ البحث، فاستكان يفكر ويحسِب حساباً لهذا المخلوق الجديد الذي لو رآه لما تركه يدِبُّ على الأرض، وخاصةً أنه لو حانت له التفاتةٌ نحو الأسفل مهما كانت لعرف ما يتحرك في الوادي، فبياض الثلج يبرز بوضوح كل ما عليه، ثم تساءل هل ما مر كان طائراً؟ لو كان كذلك لشاهده، وخشي خلدون أن يكون ذلك الطائر قد رآه، واحتمالُ عودته أمرٌ قائم، فأسرع الخُطا نحو أولِ كهفٍ صادفه، وحرَص قبل دخوله على كشف ملابساته لضمان الأمن ولما اطمأنّ جعل جِلستَه حيث يكون الموقعُ الذي حط عليه الطائرُ تحت بصره، واستمر يراقب حتى جَنَّ عليه الليل، وانتهى بذلك مفعول زجاجته السحرية فنحّاها جانباً واعتمد في ملاحقة ما يشغَلُ تفكيرَه على حواسه التي لم تخذِلْه، ثم مزّق هذا الهدوءَ الصوتُ نفسُه الذي سمعه ذاهباً في النهار عائداً في أول الليل، فازدحمت الأسئلة في رأسه وتساءل هل هو طائرُ ليلٍ أو ماذا، وإذا كان الليلُ والنهار متساويين في حركته فخطرُه عليه قائم كيفما تحرك وأينما حلّ، لا يُخفيه سوى كهفٍ من الكهوف المنتشرة، ثم تذكّر قدرةَ سهمه على إزالته عن طريقه في حالِ عدمِ وجودِ غيره، وإذا كانت أعدادُهم كثيرة فسيفقد ما يتمتع به من تفوق، فقرر البقاءَ في مكمنه ما دام الأمان موضعَ شك.

في اليوم التالي وبعد ظهور الشمس بقليل جلس خلدونُ في مكمنه يراقب السماءَ والجبالَ المجاورة مستخدماً زجاجته السحرية، فسمع صوتَ أجنحةٍ تشق الهواءَ مارةً من الجنوب إلى الشمال، فتبعها أولاً بأذُنه، ثم ظهر ذلك الطائرُ فتبعه ببصره، وما إن ابتعد حتى استخدم زجاجته السحريةَ تلاحقه حتى حط في المكان نفسه الذي حط عليه بالأمس على جبلٍ مجاور، ولكنّ ما رآه بعد ذلك قد أدخله في دوامة، فما إنْ ضم الطائرُ أجنحتَه حتى برز من خلالهما رجل بقامةٍ مديدةٍ عريضُ المنكبين، ثم رآه يجول ببصره في كل الأرجاء، وبعدها أخرج

الرجلُ من جيبه قطعةً بيضاء خرج منها لدى تسليطِها شررٌ بألوانٍ مختلفة، وبعد ثوانٍ اختفى ذلك الطائر الإنسان، فرؤيتُه كانت إجابةً لأسئلةٍ كثيرةٍ كانت تراوده وتقضُّ مضجعَه، فقرر الصعودَ إلى الجبل المجاور ورؤيةَ ما يجري، وفعلاً هيأ نفسَه لتلك الرحلة وبدأها حين غادر الكهفَ مهيِّئاً قوسَه واضعاً نصب عينيه كل الاحتمالات.

استمرت رحلةُ خلدون كاملَ النهار وصوتُ عصفورته المرتجفُ تدعوه إلى عدم التمادي والسعي إلى حتفه، وخلدونُ يُطَمئن عصفورتَه ويدعوها إلى الهدوء حتى اقترب من الجبل، فقابله كهفٌ متواضع، فنزل فيه وبدأ يراقب حتى أخذت الشمسُ تختفي وراء الأفق، وما هي إلا لحظات حتى سمع خلدون صوتاً أجشَّ، ثم حركةً لأجنحة، تبعها صوتُ مغادرةِ المكان، وأذناه تنبئانه بابتعادها، وما إن اختفى الصوت حتى بدأ خلدون تسلُّقَه نحو المكان الذي حط عليه الرجل الطائر مستغلاً ظهور القمر، ولما بلغ الليلُ منتصفَه كان خلدون يحط أقدامَه على شرفةٍ كبيرةٍ غير موصولة، مما يعني أنها معدَّةٌ للنزول من الفضاء فقط، فبحث في أرجائها عن وجود باب ما فلم يجد، وهذا يوحي بوجود باب، فجال ببصره في أعلاها وفي الزوايا الميتة، ولفت نظرَه وجودُ نور خافت يبعُد بضعة أمتار عن الشرفة، فتشاور بذلك مع

عصفورته وطلب منها الصعود ورؤيةَ ما يضمُّه ذلك النور.

عادت العصفورة إلى خلدون بعد رحلة دامت دقائق قليلة، وهي تتلعثم بالكلام، تُخبره أن ما شاهدتْه غريبٌ وغريب جداً، فالفتحة ما هي إلا نافذةٌ ضيقة يعلوها نوافذٌ كثيرة لتغيير هواءِ قاعةٍ تضم في جنباتها فتياتٍ كثيرات في عمر الورد، يَقُمن بحياكة ما يشبه ثوباً فضفاضاً لا قرارَ له، وهنا سألها خلدون عن مدى قدرته على تجاوز الفتحة، فردت أن الفتحة ضيقةً على أمثاله، كما أنّ في داخلها عائق معدني يحول دون دخوله، ولكنّ بمقدورها الدخولَ والخروج إذا لم يكن هناك عوائق أخرى غيرُ منظورة، وأبدت استعداداً وحماسةً واضحين لتنفيذ أيةِ مهمةٍ تُوكل إليها وتكون بتماس مع فتيات من سنِّها والتعرفِ على انتمائهن، ولكن خلدون كان يبحث عن مكان يتوارَى فيه قبل حضور الرجل الطائر المتوقَّع بعد ظهور الشمس داخل وحول الشرفة، وشاركته عصفورته اهتمَامه وقامت بالفحص والتمحيص، حتى وجدت مصدر ماءٍ يخرُج من فتحةٍ بأسفل القائم الأيمن للجبل من الشرفة، وكان ذلك مدعاةً لسرور خلدونَ الذي أقام مخيمَه على نتوءٍ صخريٍ مرتفعٍ داخل الفتحة التي يخرج من أسفلها الماء حيث يمكنه منها التحرك والصعود نحو الشرفة ورؤية ما يجري، تاركاً رؤيةَ ما بعد الصخرة داخلَ الفتحة والماءَ الخارج، باعتباره ينبوعاً أو نتيجةَ ذوبانِ الثلج، ولم يَدُر بخلده أن تلك الفتحةَ ما هي إلا مصرفٌ للمياه المستعملة لهذا الصرح، إلا بعد أن دخل الرجلُ الطائر مكمنَه وسمعَ حِواراً داخل تلك الكوة، حينها تسلل خلدون بهدوء بضعة أمتار ليجد حاجزاً معدنياً يمنع استمرار تسلُّلِه، موضوعاً على فتحةٍ شاهد من خلالها مكاناً واسعاً تقبع في زاويته امرأةٌ، أقرب في شكلها إلى الرجل الطائر، بلونِ بشرتها وشعرها المتدلي المائلِ إلى الصُّفرة وطولِها المديد، وبالقرب منها سريرٌ مديد من الصخر فُرشتْ عليه بضعة أغطية ووسادة، وفي الزاوية الأخرى مكانٌ لخزن الطعام والشراب، وطاولةٌ ومقعدٌ مصنوعان من الصخر، وهي ترتدي لباساً خشناً يستر جسمها بكامله، ولفت نظرَه دموع تتسلسل من مقلتيها ووجنتيها وتستقر بأرض الغرفة بعد انسيابها عبر الذقن، فقبع يتشاور مع عصفورته

همساً ويتساءل عما كانت تتحدث معه، هل كان الرجلَ الطائرَ أم أن هناك قاطناً آخر يشاطرها هذا المسكن الصخري، وبقي على ذلك حتى شاهدا باباً يُفتح ويطل منه رجلٌ كان يحمل بين يديه كومةً من الخيوط المحبوكة، وألقى تلك الكومةَ في وجه المرأة، تبعها كرةُ خيوطٍ تدحرجتْ بعيداً عنها، وكلماتٌ قالها وهو مقطّب ثم عاد كما حضر وأغلق الباب دونه.

أمسكت المرأةُ تلك الكومة وأجرت عليه فحصاً، أثناء ذلك بدأت حقيقتُها تتضح، وظهر ما ينبيء بأنها رداءٌ فضفاض، تبعه ظهورُ أكمامٍ يعلوها غطاءٌ للرأس، موصولةٌ جميعها بأجنحة آخرها مدبب، وقد خرج من منبَتِ الأجنحة ذنَبٌ طويل وآخره مدبب، وما إن ظهرت حقيقة كومة الخيوط المحبوكة حتى تبادل خلدون وعصفورته النظرات، وأومأا برأسيهما وقد عرف كل منهما أن شريكه عرف ما تكُونُه تلك الكومةُ المحبوكة، وعرفا أيضاً أن الرجل الطائر لا يكون طائراً إلا إذا ارتداه، واستمر نظرهما يلاحق ما تفعله المرأة التي توقَّفَ بحثُها عندما وجدت فتْقاً في أعلى جناح الثوب، فقامت من مقعدها لالتقاط كرة الخيوط، فسمعا صوتَ سلاسلَ تتحركُ مع حركتها، وظهرت لهما السلاسل لدى ابتعادها تتحرك مع تحرك قدمها اليمنى، وشاهدا السلاسل وقد ثُبِّتَ أولُها بكُرةٍ حديدية، بينما كان آخرها معلقاً في سِوارٍ حديدي في رُسْغِ قدم المرأة اليمنى، فعرفا أن ذلك المكان ما هو إلا غرفةٌ في سجن، فتسلل الخوف إلى نفس خلدون خشيةَ أن يفقِد حريتَه ويكونَ مآلُه مآل تلك المرأة، وتزاحمت أسئلةٌ كثيرة في رأسه تدور حول رداءِ الطائر وكيف يعمل، وحول المرأة السجينة وكيف وصلت إلى هنا، والأسبابِ التي حوّلَتْها إلى سجينة خطيرة تستدعي تكبيلَها بحديدٍ مانعٍ لهروبها، وكان تَدَحرُج كرةِ الخيوط وابتعادُها عنها قد دفعاها إلى التمادي في التحرك لالتقاطها، وتصادف أثناء ذلك وقوعُ نظرِها على الحاجز المعدني القابع وراءه خلدون حيث كان نظره مسلّطاً يلمع، فالتقت نظراتُهُما، ولمعت عينا المرأة وهي تُحملق بشدة لتتأكد، ثم قامت بوضع يدها على جبينها بعد تقطيبه، ثم نقلتها إلى فمها، وظهر الخوفُ في عينيها، وتنقّل بصرُها

في أرجاء الغرفة، وسلّطته على الباب، ثم نقلته نحو خلدون الذي بقي في مكانه وقد أخذ نظرُها يميل نحو الاستفسار بعد أن تجاوز مرحلةَ المفاجأةِ والخوف، وسألتْه كيف وصل ومن أين هو؟ فرد بعد أن تمالك نصابَ توازُنِه بأنه الأمير خلدون من بلاد الشرق الغنية، يبغي الحصولَ على سيف الرحمن، فانتفضت محذّرةً مما يفعله ذلك السيف بقوافلَ من الشبانِ الذين يأتون لنَيْلِه ويكونُ مصيرهم حرمان أهليهم منهم، فلا أحدَ يتمكن من الوصول إليه، لأن السيف له حُماته الأشداء، ورَجَتْه باكيةً مستجديةً ليعودَ من حيثُ أتى، لأن مَن أصر واستكبر كان مصيرَه الموتُ الزؤام على يد رجالِ الشيطان، فالرحمةُ معدومةٌ والقتل مهنةٌ امتهنوها، وأنتم
وما تَهْوَوْن وقودُها.

فسألها خلدون عما تقصده بما نَهْوَى؟ فردت أنّ قصرَ زوجها يعُجّ بالأميرات الجميلات الموضوعاتِ طُعماً لمنقِذيهم، فظهر على خلدونَ العجبُ وسألها عن الرجل الطائر أهو زوجها؟ فقالت: نعم هو زوجي واسمه الماحق واسمي اللاحقة، وقد نِلتُ ما نِلتُ عقوبة لمساعدتي أميراً مثلك، قدِمَ على حصانٍ أبيضَ ويرتدي رداءَ أبيض، وقد استهواني مظهرُه فساعدته على إنقاذ محبوبته، وعرفَ زوجي بالأمر فقتل الأمير وأعاد الأميرة وكان من نتائجها ما ترى..

أطرق خلدونُ قليلاً ثم قال: إن الشيطان قد تمادى، وأصبحت بلادنا مرتعاً خصباً يحكمها دون رادع، فلا دينَ يجمع، ولا قِيَمَ تُتَّبع، ولا أخلاقَ ولا مرجع، فالكل يُغنّي على ليلاه، حتى أصبح القابض على قِيَمه وأخلاقه ودينه نادراً ندرةَ سيف الرحمن، فما جئت إلا لإعلاء كلمة الحق والعدل، ولا قاهرَ للشيطان وما زرعه وعممه إلا سيفُ الرحمن، وإن الله قد خصّكِ ووضعكِ في طريقي لمساعدتي لا لردِّي عما جئت من أجله.

وبينما كان خلدون يتكلم كانت المرأة تنظر إليه بتمعن، وتُفكِّر وتحلِّل كلَّ كلمة يقولها، وما إن انتهى حتى قالت: السيفُ يا ولدي في مكان بعيدٍ من هنا، والوصولُ إليه مستحيل، فكهف المردة لا يصله

أحد إلا إذا ارتدى رداءَ الهواءِ الذي أنا بصدد رَتْقه، فأنا قد تفننْتُ بصنعه ورتقه بعد أن تعلمتُ تلك الصناعة على يد عالمٍ أحضره الشيطان، وقد علَّمْتُه أميراتٍ أُحضرن عنوة من بين أحضان ذويهن، وشاركْنني قصري وزوجي، ولكنّ رداءَ الهواء لا يستوي إلا إذا قمتُ أنا بختمه، ولهذا تُركتُ على قيد الحياة بانتظار إيجاد مَن تقوم مقامي، وما رداءُ الهواء الذي أمامي إلا عنوان صدقِ أقوالي، والفضلُ بذلك يعود إلى أمرٍ يجهله الجميع حتى الشيطانُ نفسُه.

وبينما كانت المرأة تتكلم كان خلدون يحلّل كلّ كلمة تنطق بها، ويبحث عن حلٍ من خلالها، ولما انتهت بادرها خلدون بقوله: إنها قادرةٌ لو أرادت على مساعدته، فأجابته متعجبة كيف لك وأنا كما ترى؟ فقال خلدون: ذلك الرداء الذي تقومين برتقه، فزاد تعجبُها وسألته عما يقصده؟ فرد إن ذلك الرداء لو ارتداه وحصل على طريقة استعماله لتَمَكَّن من الوصول إلى كهف المردة، وسألتْه ماذا بعد ذلك؟ هل تظن أن الكهف دون حُرّاس.. فحراس الكهف لا قِبَلَ لأحد بمقارعتهم ولو كنتَ تملك جيشاً، فرد أن ما لديه من سلاح ماض لا يقف أمامه أحد، فردت سلاح؟ هل هذا السلاح قادر على نيل رجالٍ كزوجي: فرد خلدون: نعم ولو كانوا في الفضاء. فسألته وقد لفَّ العجبُ وجهَها قائلة: هل ما تقوله يدخل في نطاق الصدق أم أنك تبالغ بأقوالك لإقناعي؟ فرد خلدون بأن مساهمتها بمساعدته ستجني منها الكثير، وأولُ ذلك نجاتُها مما هي فيه، فردت بأن لا قدرةَ لأحد على نجاتها إلا إذا ملك جهاز فتح الأقفال، وهذا الجهاز يخص زوجها دون غيره. فرد خلدون أَوَلَو ملكه رجلٌ آخر؟ فقالت: فهو لِمَن يملكه ويستعمله، فرد خلدون بأنه سيكون لكِ بنهاية المطاف.

حينها لمعتْ عينا المرأة وشعر خلدون بأنه أصاب عندها ما تحلُم به وردَّت: ولكنْ يا ولدي ذلك الرداء يفيض كثيراً عن حجمك، فالعِبرة بحجمه عندما ترتديه لا بأجنحته أو ذيله، فرد خلدون أين ذهبتْ الخبرةُ والقدرة التي تمتلكينها.. فالرداء أمامك وكُرة الخيوط إلى جوارك، وهي مزودةٌ بالإبر اللازمة، وأنا رهنٌ إشارتك.

ففكرت المرأة تفكيراً مديداً، فما سمعَتْه جديد عليها، ولم يخطُرْ ببالها من قَبل، ورأت فيه حلاً لمعضلتها، فردَّت أنْ يُقسمَ لو حالفه الحظ، لأنّ الإخلافَ سيُورثها الموتَ لا محالة إن بقي زوجها على قيد الحياة أو مات وكان ذلك آخرَ النقاش، فما إنْ أقسمَ خلدون على البِّر بوعده حتى بدأت المرأة تُري خلدون كيفية استعمال الرداء، ثم وقفتْ وارتدت الرداءَ وفتحت يديْها وأرجلَها فانبسطت الأجنحة وانكمش الذيل قائلة: إن الرداء يا ولدي مصنوعٌ من ألياف نادرةٍ مثقوبة، يدخل الهواء عبرها عندما تُفتح الأيدي، وشاهد أذرعَ الطائر القاسيةَ بمفصليه، وفي آخر كل ذراع مقبض قائلةً: إن ذلك المِقبضَ مهمتُه إفراغُ الهواء، فعند الضغط عليهما يفرُغُ الهواءُ من داخل الرداء، وحتى يستقيمَ هبوطُك فإن عليك ضمُّ رجليك فينبسط الذيل وتحصل على هبوط متوازن، وعلّمته الدوران أثناءَ الطيران عندما بدأت بتحريك رجليها، وختمتْ بتعليمه الطُرق المتَّبعةَ بالطيران من مكان مرتفع بالقفز فقط بعد بسط يديه، أما الطيران من على الأرض فيكون بالقفز بقوة عضلات رجليه مرات عديدة حتى يصعَدَ في الهواء ويسعى إلى التوازن، ثم علّمته أفضلَ طرق الطيران نحو الأعلى والأسفل، أما الاندفاع إلى الأمام فسيكون بضم يديه بين الإبط والكوع حتى تلامسا الجسم فينطلق الهواء من ثقب خلفي لأكياسٍ مرنةٍ للهواء قد زُوِّد بها الرداء بين الإبط والكوع، وتقوم تلك الأكياس بتعبئة الهواء عند فتح اليدين، فيدخل من فوهة أماميةٍ مزودةٍ بمانع يمنع خروج الهواء من الأمام، كما شاهد طريقة ارتداء غطاء الرأس..

فرحَ خلدون بما تعلَّمه، وبما يراه من صنيع المرأة وقد أنجزت الرداء، وهي تقوم بدسِّه بين فتحات الحاجز المعدني الفاصل بينهما قائلة: يا ولدي إنّ الرداء الآن على قدْرِ حجمك، وإنّ ظهورَ زوجي لأخْذهِ لايتعدَّى يوماً أو يومين هذا إذا بقي يذكره، فلديه منه الكثير، ووقته أضيق من تذكُّره، فعمله الليليُّ في كهف المردة والنهاريُّ مع مَن في قصره من الأميرات الجميلات يُنسيانِهِ ما فعله بالأمس، ولكنْ أرجو منك الإسراعَ وإنجازَ ما جئتَ من أجله وما أقسمْتَ عليه، فلا ضمانَ لي بالحياة بعد يومِ غد إذا بقي الرداءُ في ذاكرته وجاء لأخذه،

وقامت بإخفاء كُرةِ الخيطان. وبعد أخْذِ خلدون الثوبَ راحتْ تلاحقه بنظراتها وهو يغادر وهي ترجو الله أنْ لا يهملَ ما وعد.

خرج خلدونُ من الكوة، ووقف على الصخرة البارزة وكان الوقت منتصفَ النهار والشمسُ ساطعة، وفِكْره منصب على تجربةِ الرداء وما ينطوي عليه، وأثناءَ ارتدائه كانت العصفورةُ تتعاون معه وتُذكّره بما يَغْفَل عنه، ثم نصحتْه بتجربته على أرض مستويةٍ حتى لا يكونَ قد أغفل شيئاً، أو أن الرداء ليس على ما يرام وتكون نهايةَ المطاف.

عمِل خلدون بنصيحة عصفورته، وهبط بما يحمل إلى عُمق الوادي والأفكارُ تتزاحم في رأسه، وانتقى مكاناً على الأرض يصلح للتمرين عليها، وكان عملُه بطيئاً رديئاً، واستمر أداؤه ركيكاً حتى قاربت الشمس على المغيب، فانتحى أحدَ الشعاب يلم نفسه ويعدّد أخطاءه وهو ينظر نحو شرفة الرجل الطائر، مستخدماً الزجاجةَ السحرية أثناء خروجه ليتعلّم منه كيفيةَ تَعامُله مع الرداء، مستغلاً بزوغ القمر بضيائه، وما إن ابتعدَ صوتُ هدير طيران الرجل الطائر حتى عاد خلدون إلى حقل تجاربه يمارس التدريب، ولما قارب الليلُ منتصفه أخذ شعورُ خلدون يحثُّه على الانتقال وتجربةِ المرحلةِ العملية، والقيامِ بالتدرُّب على الطيران، ورغمَ ذلك وجدَ نفسَه متثاقلاً عندما صِعدَ إحدى الصخور التي اختارها لإعجابه بامتدادها، ولما تسلقها وثبَّتَ أقدامَه عليها بدأ بتجربته عندما فتح جناحيه فلمس التغييرَ الحاصلَ في الرداء، من رداءٍ فضفاضٍ انسيابي إلى شكل طائرٍ ممتد، قد ملأ الهواءُ جوانبَه وأصبح جاهزاً لِلطيران، وأثناءَ ذلك مر بفكره مقولةُ المرأة، ومشاهدة الرجل الطائر وتعامُلُه مع الرداء منذ ساعات، ولكنّ استعدادَه الذهني والجرأةَ على استخدام الرداء للطيران لم تكتملا بعد، وبقي متردداً يفكّر وهو يَسمع التشجيعَ من عصفورته التي تحثُّه على التجربة، وبعد برهة استجابت حواسُّه لنداءِ عصفورته، وانطلق ينفّذ تجربته الأولى فطار على وجه الأرض إلى مسافة لا يُستهان بها، وهبط هبوطاً متواضعاً لكنه تجاوز بذلك وهماً لازمه وأقلقه، وكان يسمع إعجابَ عصفورته وتشجيعَها.

وبعد تلك التجربة كرر خلدون ما فعله، واستمر على ذلك ذهاباً وإياباً وهو يَحُطّ ويُقلع حتى أخذ عملُه مع الرداء يأخذ شكلاً اعتيادياً مقبولاً في كل نقلة يخطوها، ولم يتوقف خلدون الذي أسعده التدريب وتجاوُبُ الرداء معه بدقة إلا بعد أن شاهد نورَ القمر وقد آذن بالمغيب، حينها أفرغ الهواءَ من الرداء وخلعه وهو يعانقه بكلتا يديه، وأدخله كهفَه لينام وهو بقربه، وقد أسعده النجاحُ الذي أحرزه ولو كان متواضعاً، واحتجب في ذلك الكهف طَوال النهار ينتظر ظهور قمر الليلة القادمة، وقام ـ وهو أكثر جرأة بما قام به في الليلة المنصرمة ـ بأداءٍ أفضلَ وتعاونٍ أشمل، حتى شعر بأن حركاتِه ومشاعرَه بدأت تتجاوب بشكل تلقائي مع ذلك السلاح الفريد، وأثناء ذلك تذكّر اللاحقةَ المرأةَ التي ساعدته وما ستؤول إليه، والمدة التي قضاها في التدريب، وخوفَه من أن تكون تلك المرأة التي غابت عن ذهنه في اليومين الماضيين قد دُقَّ عنقُها، فقرر زيارتَها قبل أن يختفي ضوء القمر، ونفّذ ما عزم عليه على الفور وهبط على شرفة الرجل الطائر، ثم تنقل حتى وصل فتحةَ سجنِ المرأة، وتسلل عبرها ليجد المرأةَ ما زالت قابعةً في مكانها تنتظر الفجر، وهللتْ عندما سمعت صوتَه، وطمأنتْه أن رجلَها زارها أثناء غيابه ولم يذكر رداءه، وهنأته على استيعابه تعليماتِها وقدرتِه على الطيران وأعطته تفاصيلَ ومعلوماتٍ كان بحاجة إليها عن مكان الكهف، وحركةِ ودوامِ حرّاسه، والأسلحةِ التي بحوزتهم، ومكانِ السيف داخلَ الكهف.

شكر خلدون اللاحقةَ وغادرها وهو يشكر الله الذي ألهمه زيارتَها، فقد وجد في تلك الزيارةِ عوناً كبيراً لمهمته، وحلّق عائداً إلى كهفه وصدى تعليماتِها وتحذيراتِها ودعائِها لا يفارقان سمعه، وأهمُّها الاستمرار على التدريب أياماً أُخر إلى أن يستوعب تقنيات الرداء والتعاملَ معه بسهولة ويُسر.

وفي الليلة الرابعةِ كان خلدونُ قد توسع في طيرانه، وجالت في صدره فكرة التحليق بطيرانه، والتنقلِ بين السلسلة الجبلية المقابلة للشعاب السحيقة التي يكمن فيها كهف المردة، ورؤيةِ ذلك الكهف من إحدى القمم المشرفة، قام بتنفيذ ما أراده وراح يتنقل بين الجبال حتى

تراءت له علاماتٌ كانت قد وضحتها له اللاحقة، فهبط على قمةٍ مجاورة، وانتظر حتى ظهرت الشمس بأشعتها، فالتقط زجاجته السحرية وشاهد من خلالها ما كان يجول بين الأرجاء، وشاهد أثناء ذلك الرجل الطائر لدى وصوله وهو يحُطّ في مكانٍ قربَ الكهف، ويلتقي برجل طائر آخر قبل أن يغادر، وكان حضورُه والتقاؤه بالرجل الطائر الآخر قد وضّحا لخلدون مكانَ الكهف بجلاء، وخاصة عندما عَبَره الطائر القادم.

بقي خلدونُ يجدُّ في المراقبة يوماً آخر مستغلاً ضوء النهار، فتمخض ذلك ـ إضافة إلى إيجادِ أفضلِ السبل للوصول إلى الكهف ـ عن كشْفِ حرّاسه، فقد شاهد تبادلاً لحراس كامنين على ظهر الكهف، ثم شاهد طائراً يجوب الأرجاء على مدار الساعة، وزيادةً في الحرص شملت مراقبة خلدون الليلَ قبل وبعدَ ظهور القمر، وعرف بعد مرور الليل بأن الحراسة الليلة لا تشمل الأجواء، وكل اعتمادها كان على كمائنَ أرضية، ونتيجةً لمشاهداته وضع خلدون تصوُّرَ الانتقال إلى إحدى الشعاب القريبة من الكهف ليلاً، وقد حدّد ذلك المكانَ بدقة حتى لا يضطر إلى البحث ولما أرخى الليلُ سدولَه واطمأنّ خلدون إلى عدم وجود أحد في الأجواء، انتقل وحطَّ على المكان الذي حدده بدقة، واستعد وانتقل نحو حرّاسِ وكمائن الكهف ملقِّماً قوسه، وكَمَنَ ينتظر ظهور القمر في أواخر أيامه، فظهور القمر وضَح له وجودَ الحارس الكامن الذي تلقّى سهمَه الأول، ولمس سقوطَه، وانتقل على أثره نحو مدخل الكهف متجنباً الكمائنَ ودخلَه ليجده مُناراً، وأخذ ينتقل بحذرٍ شديدٍ حتى التقى رجلَه المنشودَ الماحق، بزيِّهِ العسكري وقامته المديدة، يتمنطق سيفاً ويحمل بيده رمحاً، وبدا الذهول على وجه الرجل عندما شاهد خلدون قبالتَه يهدّده، ولكنّ الرجل المتحفز كان على وشك قذفِ الرمح، فعاجله خلدون بإطلاق نَبْلِه الذي كان الأسرع، وانتقل خلدون بعد مقتل الماحق يبحث بين جنبات ملابسه عن جهاز فتح الأقفال، وما إنْ حصل عليه حتى انتقل مسرعاً نحو السيف الموضوع على مِنصّة، ضمن صَرْحٍ زجاجي بأقفاله الخمسة، وباءت محاولات خلدون لتحطيم زجاج الصرح بالفشل وهو ينظر نحو مدخل الكهف خوفاً من مفاجأةِ

أحدِ حراس الكهف له، ولم يتذكر أن لديه الجهازَ المخصصَ لفتح الأقفال إلا بعد أن أعيته الحيلة، وظن أن الإخفاقَ قد حالفه، وكان ذلك إيذاناً بنيله السيف، وقام برفعه عالياً وهو يردد والسعادة تغمره -: الله أكبر ... الله أكبر وخرج من الكهف دون أن يعير أحداً أيَّ اهتمام، فالنور المنبعث من السيف ينير طريقَه والقدرة التي يملكها السيف تحطّم خصوم مهمته، وكانت مفاجأةُ اللاحقةِ شديدةً عندما رأته يحمل سيف الرحمن الذي يضيء بنوره الأرجاء يقدم لها ما وعد، وشاهد اللاحقةَ تفتح قُفْلَ قيدها والسعادةُ تغمرها، وأبدت رأياً يحميه ويحمي سيفه أن لا يُخرج السيفَ من غمده إلا في حالات استعماله.

غادر خلدونُ حاضرةَ الأرغن والأفكارُ تتزاحم في رأسه وهو يسمع صوت عصفورته تغني وتهزج، ونظرُه يجوب الأرجاء وهو في عليائه يطير وقد ملأ الفخرُ والقوةُ نفسَه وفمُه لا يفترُ عن التسبيح والشكر لله الواحد القهار، وشاهد نفسَه يطير فوق الغابة المترامية الأطراف في بلاد الهيم، تلك التي كانت يحسِب حساب تجاوُزها لدى عودته، فزاد على أثرها تسبيحُه وشكره لله، وما إنْ تجاوز بلاد الهيم حتى قابلْته الصحراء التي لا آخرَ لها، وتذكّر المعاناة التي لاقاها، ثم شاهد من علوِّه كيف تم له اجتياز الصحراء ودخولُه أرض مدينة العناقيد، وتذكر صديقه محمداً الذي أراده الله أن يكون منقِذاً لها وحامياً لمبادئها وتراثها عندما خصّه بسيف الرحمة، وتجاوزها ليعبُرَ منطقةً فسيحةً في وسطها البحيرةُ المجنونة، فوصلَ إليها وشاهدها لم تتغير، فتذكر مقولةَ الشيخ، فاتجه إلى قِمة جبلها وبحث وهو في الجو عن العين الحاسدة، فتراءت له بشقيها الأبيضِ والأسود، قابعة على قِمةٍ تسلّط شعاعَها نحو البحيرة، وكان هبوطُه الأولُ من الجو على تلك القمة بعد مغادرته صرح الماحق وإنقاذِ زوجته اللاحقة، واقترب من تلك العين التي أقضّت مضاجع البشرية، فالحسد شيء فظيع ينال منه الجميع الحاسد والمحسود، ولا يصاب به إلا ضعافُ النفوس فاقدو الإيمان بالأقدار، فنال منها وفقأها بسيفه سيفِ الرحمن، وشاهد من علوِّه التحولَ الظاهر على الأرض، وهو يشكر الله بعمق على تلك

النعمة التي أسبغها عليه، ثم غادر قِمةَ الجبل عبر البحيرة التي كانت مياهها تتناقص وتظهرُ مكانَها مدينةٌ بأبنيتها، وتتحول أسماكُها من أسماكٍ إلى أناس واتّجه نحو مدينة القوارير مدينةِ عصفورته الطنانةِ سماح، ولما وصلها قادته عصفورتُه إلى قصر والدها، وأنزلته شرفةَ غرفتها، في تلك اللحظة كان صوت المؤذّن يعلن لصلاة الصبح، فدخل غرفة سماح متسللاً، ونام في سريرها حتى قارب النهارُ منتصفَه، حينها غادر الغرفةَ بجهازِهِ كاملاً ماراً بالممرّ المفضِي إلى قاعة العرش، دليلُه عصفورته سماح، فاصطدم بحرّاس باب قاعة العرش، فتنادَوْا وهم يستغربون ظهورَ مسلح بهذا القَدْر من السلاح، وقد وصل إلى مكان متقدم من القصر، متجاوزاً أبواباً عديدة محروسة عدا المدخلِ الرئيسي، وكان لأصواتِ الحراس صداه داخل القاعة التي خرج منها بعضٌ من حماتها لاستجلاء الأمر، فأخذت العصفورةُ طريقها إلى داخل قاعة العرش من بابه الذي تم فتحه، وهي تنادي والدها طالبة السماح لهذا القادم بالدخول، وهي تحذّر بأن لا قِبلَ للحراس بمجاراته.

وهنا وقف الحاكم وصرخ: أوقفوا هذا الهَرْجَ واتركوا القادمَ يدخل، ثم تساءل عن مصدر الصوت الأنثوي.. وقد أخذه العجب من صدوره وكأنه داخل القاعة، ثم سمع ذلك الصوت ثانية وهو يقترب رويداً رويداً مع اقتراب طيران العصفورة نحو كرسيّ العرش، وأيقن أن مَن تكلّمُه إنما هي ابنته سماح فقال ماذا... ابنتي سماح.. وتساءل إن كان هناك من أحضر رُوحَها؟ فردت لا يا أبي.. فأنا ما زلت على قيد الحياة، حيةً أُرزق، وقد حوّلني ذلك المنافق وزيرُك أجهش الذي يقبع الآن إلى جوارك إلى حية، وتركني في قارورةٍ ملقاةٍ في وادي الأفاعي.

في تلك اللحظة كان خلدونُ قد وصل إلى منصة الحاكم تحت حارسة مشددة بسيوف مسلطة، وألقى بين يدي الحاكم ألبسةَ الأميرةِ سماح وتاجَها، بينما استمرت سماحُ تكشف ما أُخفي عن والدها قائلة: إن موتي كان فِرْيَة أطلقها وزيرُك أجهش، وصدّق عليها من تسمّيهم

بالمستشارين، فمستشارك الأمين عربش جاء برأسٍ يشبه رأسي وحذائي وغفِلوا عن تاجي وما أرتديه، بينما جاء مستشارك التمويني خربش بما أحمله من طعام، ومستشارك السياسي كربش جاء بشهودِ زورٍ من المقرّبين لي كوصيفتي وحارسي وقائدِ عربتي.

بينما كان صوتُ سماح يلعلع في أرجاء القاعة كان الحاكم وزوّارُه
وقد اشرأبّتْ أعناقُهم يلاحقون بنظراتهم وأسماعِهم مصدرَ الصوت، في حين كانت سماح المتوارية خائفةً من أن يقع بصر أجهش على بصرها وتفقد قدرتها
على الاستمرار.

ولما كان جميعُ من ذَكَرَتْهم سماحُ حاضرين ما عدا الشهود، التفت الحاكم رياض إلى هؤلاء وسألهم، فأجابه أجهش متهماً القادم بأنه ساحر ماكر، لا يبغي سوى زعزعةِ الحكم والاستقرار الذي تنعم به الدولة، بإحداث فتنة بين الحاكم ومساعديه، بإطلاق صوتٍ من شيءٍ مسحور مقلّداً صوت أميرتنا ومحبوبتنا ومحبوبةِ جماهيرنا سماح، والتي لن تكون آمنةً في قبرها إلا إذا قمنا بالقضاء على الفتنة في مهدها وقتل ذلك الساحر. فقال الملك قبل أن آتي بالشهود؟ فرد الوزير أجهش إن قدرة الساحر على التأثير ستشمل الشهود أيضاً، سنقع في دوامة البلبلة التي لا نهايةَ لها، وتنعدم الثقة التي ننعم بها.

وبينما كان الوزير أجهش يحاور الملك كان السحرة الآخرون يجِدّون بالبحث عن مصدر صوت سماح لرؤيتها والإيقاع بها، ولكنّ سماح المتواريةَ دحضت أقوال أجهش، وأدلت بحقائق لها شهود عن رغبةٍ جامحةٍ بأجهشَ أوقعت أباها في حيرة وشك، فدعته لطلب الشهود، وكي يكون للشهود الحريةُ والأمان فقد دعا الحاكم ابنتَه لمقابلته على الفور، ودون رقيب وراء الكواليس، وما إنْ هم الحاكم بمغادرة القاعة حتى أخرج الوزير أجهش سيفه الناري من غمده، واتجه نحو الحاكم بغيةَ قتله وتحويلِه رماداً، فاضطرب الوضع، وأتيحت الفرصة لخلدون للتحرك حين تركه محتجزوه لحماية

حاكمهم، وأخرج سيفه سيفَ الرحمن من غمده، واتجه نحو أجهشَ الذي كان سيفُه يحرِق كل العوائق التي تظهر في طريقه سواءٌ أكانوا من الناس أم الأشياء، وتصدّى له، وكانت المفاجأة عندما ضرب أجهشُ خلدونَ بسيفه، فتلقاه سيف خلدون وأحرق السيف وحاملَه، فدُهش الجميع لهذا المنظر الفريد، وازدادتْ دهشتُهم عندما سقطتْ عصفورةٌ طنانةٌ على الأرض، وتحولت إلى حية، ثم إلى دخان تصاعد حتى بلغ مستوى طول سماح الأصلي، وبدأ يتكون معيداً سماحَ بلحمها وشحمها، فأسرع خلدون وألبسها قَلَنْسُوَتَه وهي تناشد الحراس أمام ذُهول الجميع واستغراب الأب الحفاظَ على عربش وحربش وكربش الذين ألجمت المفاجأة ألسنتهم واستسلموا للسلطات.

وبينما كانت أصوات النسوة وزغاريدُهُنّ تنطلق في أرجاء القصر كان خلدون يمتّع نظره بتلك الفاتنة وجمالِها الأخاذ، وقَلَنْسُوَته تلامس جسدَها الناصعَ البياض، ووجد العذرَ لأجهش عندما أعطى هذا الجمالَ حقَّه وأبقاه بعيداً عن الأعين واحتفظ به لنفسه في قارورة حتى ينهي أعمالاً كان قد بدأها، ولكن القَدَر كان أسرع، وجاء المنقِذُ قبل أن يَنْفَدَ الوقت، والفتاةُ الآن بين أحضان والدها يتحسس وجودها بالعناق، ودمعُ الفرح تبللُهُما، وعباراتُ الشوق تترد على الشفاه، وقطعَ هذا الموقفَ المفعمَ بالعواطف صوتُ خلدون الخائفِ على ذهاب سماح، دون أن يُعير الموقفَ العاطفيَّ الماثلَ أمامَه أيَّ اهتمام، طالباً يدَ سماح من والدِها الذي فوجيء بالطلب وسأله بعد أن نقّل بصرّه بين سماحَ وبين خلدونَ عمن يكون هذا الصنديد ومن أيّ بلد يكون؟ فردت سماحُ بأنه هو من اختاره الله لتخليص البشرية من أعداء الله، وأن مهمتَه ما زالت في بدايتها، ولهذا فليس بمقدوره كشفُ نفسِه حتى يُنهيَ
ما خرج من أجله. ثم التفتتْ إلى خلدون قائلة: لك عهدي بأن لا أكون لغيرك مهما قست الظروف ونال مني الانتظار، وسأبقى على عهدي ولو عزفْتَ عني، فاذهب قريرَ العين لأداء ما عزمْتَ على أدائه، وتجاوزْ كلَّ ما يُعيق مهمتَك ولو كنتُ أنا، فالوقت ينفَد والأعداء مستَشْرون. فرد خلدون: ومن دون سماح؟ فردتْ سماحُ قائلة: إن سماحَ الآن ليست الطنانةَ القابعةَ في جيب مُنقذها، تجالسُه وتكونُ عوناً

له وعينَه الساهرة، وإنما ستكون عبئاً ثقيلاً على رداء لا مكان لها فيه.
فرد خلدون فما عملُ الرواحلِ والطرق إذن؟.

فردتْ سماحُ بحنان مُفرِطٍ مع التصميم، والدموعُ تترقرق في مآقيها: لا تحملني ما لا طاقة لي به، فبُعدُك يُضني القلبَ ويجرحُ الفؤاد ويُبعد النومَ عن الجفون،
فأنت رأيْتَني لتَوِّك وتمسكتَ بي، فكيف بي وأنا أراك منذ أنقذتني، أجاور قلبَك واسمع دقاتِه وأتدفّأ بين تلك الضلوع، فحبُّك قد تغلل في نفسي واخترق عظامي، في وقتٍ كنتَ أنتَ تحتفظ بعصفورةٍ طنانةٍ تستخدمها لخدمة مهمتك، فاخرجْ قبل
أن ينفرطَ عقدي، وأكونَ ضحيةً في وقتٍ أشعر فيه أني على عتبةِ السعادة، ألا يكفيني ما سأكابدُه من ألم الفِراق وألم البِعاد وألم الانتظار وألم الخوف من أن
لا تأتيَ أبداً..

أطرق خلدونُ لحظة، ثم خرج من مكان دخوله متجهاً نحو الخارج، ترمُقه الأعين من نوافذِ وأبوابِ وأسطحةِ القصر، ولما تجاوزَ البابَ الرئيسيَّ للقصر وجد بانتظاره راحلةً تحمل أمتعته، فانطلق بها خارجَ مدينة القوارير يكلّم نفسه،
ويدعوها إلى نسيان الماضي والتأهب لرسم خريطة المستقبل، باعتماده على نفسه بعد الله الذي يعلم خطورةَ مهمته، فما عصفورتُه الطنانةُ إلا هِبةٌ إلهيةٌ رافقتْه وانتهت مهمتُها بعودته.

ولما بدأ الليلُ يُرخي سدولَه أطلق خلدون راحلته، وغادر مكانه طائراً بعد ارتدائه الرداء يَنْشُد صومعةَ الشيخ ضياء الدين في بلاده بلادِ الوئام، وقد كان مرورُه عبر السهول والجبال قد كشف له التغيُّرَ الحاصلَ نتيجةَ قتل أجهش، فالبيتُ المهجور أصبح مسكوناً، وما فعله هذا الساحر في أماكنَ متعددةٍ، ومن تجفيفِ بحيراتٍ وآبارٍ قد عادت تمارس أعمالها المعتادةَ دون سَحَرة ومشعوذين وأذرعِ إبليسَ اللعين، واستمر بطيرانه يمتّع نظره بما يراه من بدائع الخالق في السماء وعلى الأرض، وفمُه دائم التسبيح والشكر لخالق الخلق، وأثناءَ ذلك تراءى له

جبلُ اليافع، الجبلُ المطل على عاصمة بلاده، والذي ضم صومعةَ شيخه الشيخ ضياء الدين هذا الشيخُ الجليل الذي أراده الله أن يكون دليلَه في رحلته.

ولما كان الليل حالكَ السواد، ومجالُ الرؤية محدودٌ لديه، فقد تعمّد تخفيفَ سرعته وهو يقترب من الأرض، وعيناه تجوبان الأرجاء بحثاً وتمحيصاً، حتى ظهر له مكانُ صومعة الشيخ ضياء الدين بعينها، فخفف من سرعته حتى يُمْكِنَه تلقيَ الأرض وهو يبحث عن مكانٍ لأقدامه، بين الصخور الجارحة والأحجار الكالحة، دونَ أن يجد بينها مكاناً مستوياً، ولكن ذلك لم يمنعه من الهبوط هبوطاً غيرَ متواز، فكان من نتائجه أن عَلِق ذيلُ ردائه الطائرِ بالصخور والأحجار فتمزق وتناثرت أجزاءٌ منه، فطار صوابُه لِما حصل، ثم عزا ذلك إلى إرادة الله، وقام بطيّ الرداء وحِفْظِه في مكانٍ بين الصخور ووارَاه بالتراب، والحزنُ الشديدُ بادٍ على محياه، وبقي بالقرب من مواراته يتذكر مآثره، وتوارد إلى ذهنه سماحُ ومأثرُها عندما كانت تجوب الأصقاع معه، تتحدث إليه وتغني له ويجد السَّلْوى بصحبتها، ثم تذكر محمداً وناقته البيضاءَ وما قدمته، فتضرع إلى الله رافعاً يديه جاثياً على ركبتيه أن يخفف عنه وعن محبوبته سماحَ ما يعانيانه، وأن تكون من نصيبه، تشاركه رحلة حياته، ثم قام للصلاة المستمرة حتى ظهرت الشمس وفرَشَت بأشعتها الأصقاع، فاتجه نحو صومعة ضياء الدين ودخلها حافيَ القدمين والتقى بشيخه وقبّل الأرض بين يديه، ثم وقف وحلّ نطاق سيفه وقدّمه إلى شيخه أمام مفاجأة شيخه وذهوله.

لمعتْ عينا الشيخ ضياء الدين لرؤيته سيف الرحمن، وأخذه بكلتا يديه وقبّله، ثم أخرجه من غمده ولمس النور المنبعث من خطوطه القرآنية المسطرة عليه، قد تزاحمت لتشمل حدَّيْهِ وشفرته، وعليها ما يدعو إلى الترفع ومحاسبةِ النفس ونبذِ أوامر الشيطان، وراح يحمَدُ الله الذي أذِن بطيّ الحقبة السوداء التي مرت على عباده، بأن قيَّضَ لهم ذلك الشابَّ المؤمنَ خلدون ليؤديَ مهمةَ التحرير، وخاصةً أنّ الأسبوع القادم ستقام فيه الاحتفالات بِعيدِ جلوسِ أبيه على العرش.

نزل خلدونُ ضيفاً على شيخه الشيخ ضياء الدين ثلاثَ أيام، نال خلالها
كلَّ ما يحتاجه من الوعظ والتعليم والدعوة والإحساس بالمهمة المُوكلة إليه،
وما يأمره الشرعُ والدينُ ليكون بمقدوره تنفيذُ الإرادة الإلهية بتحرير أمَّته من عدو الله وعدوه.

وفي اليوم الرابع خرج خلدونُ من صومعة الشيخ ضياء الدين وفوجئ عندما وجد في استقباله عُدَّةَ المرحلة الأخيرة من رحلته، وهي حصانٌ أبيض بحُلَّةٍ بيضاءَ تشمَلُ الرأس والجسد حتى بلغت سطح الأرض، بفتحةٍ لذيلٍ معكوفٍ ناصعِ البياض، ولباسٍ لخلدونَ أبيضَ بلثامِهِ وغطاء رأسه المنساب ليشمل اليدين والكتفين، يعلوهما قَلَنْسُوَةٌ بيضاءُ ممتدةٌ تلامس الأرض بأطرافها، وخوذةٌ بياضُها لامعٌ يزيِّنها هلالٌ أحمرُ في وسط قِمتها، ودِرعٌ أبيضُ كُتب على ساحته كلمة «الله القاهر» داخلَ عَلَمِ بلاده.

نظر خلدونُ حوله وهو ينفّذ أمر شيخه بارتداءِ ما أحضره، فامتطى خلدونُ الحصانَ وهو يتوشح بسيفه ويحمل قوسه وكِنانتَه، وفي آخر عُدة قتاله تقدم شيخُه الشيخُ ضياء الدين، يحمل بين يديه رمحاً أبيضَ يزيِّنه علمٌ أبيضُ بشرائطَ حريرةٍ بيضاء، وفي وسطِهِ عبارةُ «الله أكبر» ولما تسلّمه سمع من شيخه من الدعاء ما أثلج صدره، وغادره وهو يسمع الدعواتِ له بالتوفيق، طالباً منه دخولَ المدينة في صباح اليوم الخامس لاحتفالاتِ المملكة بمناسبة جلوس أبيه على العرش، ليكونَ الردَّ الحاسمَ على كل ما عاناه شعبُه من الظلم و الاضطهاد.

عمِل خلدونُ بنصيحةِ شيخه ضياء الدين، ودخل مدينتَه في صباح اليوم الخامس وهي في ذِروة احتفالاتها، بجلوس أبيه على العرش وسط إعجابِ وذهول كلِّ من رآه، مِن حرسِ بابِ المدينة حتى وصوله ساحةَ القصر التي تجري فيها الاحتفالات، مروراً بشوارعها وأسواقها وأزقتها، ولفت نظرَ الملك وحاشيتِه والحضورِ دخولُ فارسٍ ملثمٍ من

باب ساحة القصر، واشْرأبَّت الأعناق وهي تراه يتقدم بحُلَّته البيضاء والأسئلةُ تلف الجميع، وكان يَقينُهم أن المبارزاتِ الهامَّةَ قد انتهت، وأن التصفياتِ الحاليةَ تجري بين الأدنى من المتبارزين، ولكن تقدُّمَ خلدون نحو المنصة بثباتٍ قد عدَّل من توقعاتهم عندما أطلق صيحته مردداً استعداده، فرد الملك وقد غاظه عدمُ إتباعهِ القواعد بالترجُّلِ والانحناء، بأنْ شدَّدَ قواعدَ المبارزة، مضيفاً إليها (حتى الموت)، فقبِلها خلدون بالانتصاب ورَفْعِ الرمح، حينها دعا الملك وزيرَه الحبشيَّ الذي نال الفوزَ بكل المبارزات أن يُريَه حقيقتَه، وأمره بقطع رأسه ليُزَيَّنَ به مَدخلَ مدينته، ولما كانت ثقتُه بقدرة وزيره الحبشيِّ على إنهاءِ المباراةِ لمصلحتِه لا تشوبُها شائبة، ورغبتُه بتزويج ابنته منه وهي ترفض ذلك بشدة ـ فقد أطلق صيحتَه أن يَحْظى الفائزُ بابنته الأميرةِ قمرَ زوجةً له، معدِّداً المبارزاتِ المعهودةَ ابتداءَ بالحلقات، فأشرأبَّت الأعناق نحو الحلقاتِ المعلقةَ في رأس منارةِ القصر وهم يَرَوْنها والهواءُ يحرّكُها، كانت الأميرةُ قمرُ تعقِدُ مِنديلَها على رمح الملثّم الأبيضِ أمامَ ذهولِ وغيظِ الملك ووزيرِه الحبشيِّ والأعيان.

وبعد ذلك أعلن منظّمُ المباريات شروطَ الفوز عندما يتمكن المتباري من ثقب ثلاثٍ من الحلَقات المتداليةِ من البُرج والبالغِ عددُها ستَ حلقات، بواسطةِ ثلاثةٍ من الأسهم باستعمال القوس، نظر خلدون نحو تلك الحلقات فوجدها كالعادة مركّزةً ومدلاةً من حاملٍ معدني مُثَبَّتٍ في أعلى البرج، غير أنها لِبُعدها لا تكادُ تُرى بالعين المجرّدة، فخطر له استعمال زجاجته السحرية، فقام بتثبيتها على قوسه، وفوجئ عندما ظهر له أن تلك الحلقات غيرُ مجردة وإنما كانت تحوي في داخلها عباراتٍ أساسيةً تخص حياة الناس، فقد كُتب في وسط كل حلقة عبارةٌ لها مدلولٌ قيّمٌ أو سِّيء، فثبَّت نظرَه على الحلْقة الأولى فوجد عبارةً تشير إلى التمسك بالأخلاق، تبِعها في الحلقة الثانية عبارةٌ تشير إلى إشاعة الرذيلة، ثم نقل نظره مدهوشاً إلى الحلْقة الثالثة فوجد عبارةً تدعو إلى الفضائل، تبعها في الحلقة الرابعة عبارة تشير إلى تكريم الغوغاء، ثم نقل بصرَه وقد أخذت أفكارُه تكشِف ألاعيبَ غريمِهِ التي انْطَلَتْ على الجميع إلى الحلقة الخامسة فرأى عبارة تشير إلى تثبيت

الإيمان، تبعها في الحلقة السادسة عبارةٌ تشير إلى تثبيت الكفر، كانت دقة الحبشي في الإصابة مضمونة لقدراته الشيطانية على محو العبارات التي تشير إلى الأخلاق والمبادئ والإيمان من حياة الناس اليومية دون أن يعلموا ما يدبَّر لهم، وتثبيت العبارات التي تشير إلى الرذيلة والغوغاء والكفر لعامٍ قادم، فعرف خلدون ما كان يدبِّر لقومه من انحرافٍ وضياع.

وبينما كان خلدونُ يشاهد ويحلل كانت الطبولُ تضرب إيذاناً ببَدْء المباراة، وقام كلٌ بتجهيز قوسه، فأُذن للحبشي بالإطلاق فأزال بنَبْلِهِ الأولِ العبارةَ التي تشير إلى الأخلاق فنال استحسان الملك ومن لفَّ لفَّه، ثم أطلق نَبْلَه الثاني فأزال عبارةً تشير إلى المبادئ فزاد الغوغاء من استحسانهم، ولكنّ النبلَ الثالثَ أخطأ هدفه وبقي الإيمانُ لأول مرة منذ سنين طويلة بقدرة قادر، وكان ذلك مدارَ استهجان الجميع، إذ إنّ الحبشي لم يخطئ الهدفَ من قبلُ قط، أما الحبشي نفسُه فقد أضاعَ ذلك صوابَه، وأخذ يُعيد حساباته وهو يرى خلدونَ ينتظر الإذن، وكانت المفاجأة، فقد أخذ سهم خلدونَ الأول طريقَه وأزال عبارة الرذيلة، وشاهد الاستهجان في أعين الناس، وزاد استهجانهم عندما تمكن سهمُه الثاني من إزالة عبارةٍ تشير إلى الغوغاء، فضجّ كلٌ منَ كان حاضراً لأن هذه هي المرةُ الأولى التي يتمكن فيه غيرُ الحبشي من إصابة الهدف، وما إنْ هدأ الجمهور حُبست الأنفاس واشرأبّت الأعناق حتى أطلق خلدونُ سهمَه الثالثَ بعناية فائقة لأن الدائرة بدأت بألاعيبَ خفيةٍ تظهَرُ وتختفي ولكنّ ذلك لم يمنع السهمَ من اختراقِ العبارة التي تشير إلى الكفر وأزالتها من الدائرة، فدبّ الحماسُ في الناس للملثَّم الأبيض وما أنجز، ودوَّت الساحة بالتصفيق والهُتافِ له ولإنجازه، ولكنّ ذلك لم يفُتَّ في عَضُدِ الحبشي، لأن المباريات لم تنتهِ بعد، وثقتُه ما زالت كبيرة بالفوز، أليس هو من استحدثها لتكون فوقَ طاقة البشر، وهو يتساءل عن قدرة وانتماءِ غريمه..

ثم جاء دور اللوحات الصُّلبةِ وتحطيمِها بواسطة الرمح، وخرجت الطبولُ عن صمتها، وأخذ ضجيجُها يعلن بَدءَ التحدي الثاني بتحطيم ثلاثِ لوحاتٍ متعاقبة لكل متبارٍ، وأُمر المتبارون بأن يكونوا على أهبة

الاستعداد وكلٌ يحمل رمحه، وخطر لخلدون أن يستخدم زجاجته السحرية ليتعرّف عما تخبِّئُه تلك اللوحات بين طياتها، وعرف مضمونها عندما نبَّأته عينه وشاهد من خلال زجاجته السحرية المجموعةَ المخصصةَ له من اللوحات، وهي تحمل عباراتٍ دقيقةٍ على سطح لوحهِ الأول، تدفع الناسَ نحو الحقِد والحسدِ والنميمة، فأخذه الخوف من أن لا يتمكن رمحُه من اختراق تلك اللوحات التي تحمل في طياتها ما يَنْدَى له جبين الإنسانية، ثم مال بنظره نحو اللوحات المخصصة لغريمه الوزير الحبشي ورأى من خلال زجاجته السحرية ما أخافه، فقد شاهد عباراتٍ دقيقةً على سطح لوحِهِ الأول تجمع وتحُثُّ الناسَ على الصدق والشرف والفضيلة، وبدأ دور الحبشي الذي ألقى رمحه بقوة دون أن يأتيَ بما كان يأتيه، فلم يتمكن رمحُه بقدرة قادر من اختراق الألواح وتحطيمها، أمام ذهول واستهجان الملك وصمتٍ مطبقٍ للحبشي وشاركَه الجمهور صمتَه، وقد بهرهم الملثَّم بظهوره وثَباتِ تقدُّمه نحو المكان المُعدِّ وبيده رمحُه، وخُطواتُه المتزنةُ مع القَرعِ الهادئ للطبول والثقةُ والإيمانُ يلُفّانِهِ، وتوقّف ينتظرُ إشارةَ البَدْء، ثم استعدّ ودفعَ برمحِهِ بشدة وفمُهُ يستنجدُ بالله وقوةِ خالقِ الخلق، فاستجاب رمحُه للثقة التي تربطه بالله سبحانه، وحطّم ألواحَ الحقدِ والحسدِ والنميمة.

فضجت الساحة وخرج الجمهور عن صمته، وهتف وأَكثرَ من الهُتاف حتى ملّ الملك وأمر بالهدوء، لرؤية نهايةِ فارسهِمْ في حلبة الموتِ، التي تتوسط ساحةَ النزال داخلَ المُدَرَّج العمومي ومنصةِ الملك والأعيان، ورأَوْه يدخل بحُلّته البيضاءِ ولِثامِهِ الحريريّ الحلبةَ بثقة وثبات، رافعاً كلتا يديه محيياً، وتجاوب الجمهور معه عندما رد تحيته بالوقوف والهتاف مردداً: النصرُ النصرُ للملثم.. النصرُ النصرُ للملثم، واستغرب الحضورُ دخولَ الملثم إلى الحَلْبة بأصولها المعقدة دون دليل، وظنوا بذلك الملثم الظنونَ وهم يتناقلون ظنونَهم، كما استغربوا اقتصارَ انحناءاته وتحياته لمجالس الجمهور والعوامّ في المُدَرَّج دون الالتفات إلى منصة الملك وما تحويه، فأثار ذلك حفيظةَ الملك وحاشيتِه، وانتظروا من الملك الحسمَ وإنهاءَ المَهْزَلة، ولكنّ

دخول الحبشي بدّد الأوهام، حين أَوْكَل إليه الملك مهمةَ قتله، وصَبْغَ ما يرتديه من بياضٍ بدمه، وإعلاءَ كلمة الملك ووزيرِه الحبشي التي تضررت منذ ظهور هذا المتعالي.

وبينما كان الحبشيُّ يُبدي فروضَ الطاعة بحركاتٍ إيمائيةٍ موجهةٍ نحو الملك ومنصَّتِه كان الملثَّم يبدي إيماءاتِ الحبِّ والتقديرِ نحو مُدَّرجِ العوام، وظهرُه نحو منصة الملك وما تحويه.

توقف قرعُ الطبول فاسحين المجال للأبواق وصوتِ رئيس لجنةِ المباريات، الذي افتتح المباريات بكَيْلِ المديحِ للملك وما قدَّمه لشعبه، وتمنَّى له العمُرَ المديدَ والأعيادَ الدائمةَ لجلوسه، ثم أعلن أمْرَ الملكِ بقتالِ المتباريين حتى الموت، جاعلاً اسمَ الحبشي بألقابه وانتصاراته في المقدِمة، تبعه اسم الملثَّمِ مجرداً، وبدأ القتالُ عندما أُزيل الحاجزُ الذي فصل بين المتباريين، وشاهد الجميعُ استلالَ السيوف وبَدْءَ القتال، وشعروا من لحظةِ بَدْءِ القتال أن الملثمَ ندٌّ فريدٌ للحبشي، لم تألَفْه حلْبَةُ الموتِ منذ ظهور الحبشي على ساحتها، مما دفع الجمهورَ إلى التشجيع وارتفعَ لأول مرةٍ منذ أمدٍ طويلٍ اسمُ غير الحبشي، وراح الناس في حركة دائبة تشمل الوقوف والجلوس عند كل حركة بارعة يبديها أحد المتباريين، ولما وجد الحبشيُّ أنَّ طول المباراة يعطي لخصومه المتعة، قرر كسر سيف خصمه باستعمال طُرُقٍ ملتوية، وفاجأة صمودُ سيف خصمه، فأخذ فِكرُهُ يبحث وهو الضامنُ أنْ لا سيفَ في المعمورةِ يَقْوَى معدِنُه على الصمود، فغيّر الحبشيُّ من أسلوبهِ في القتال ليختبرَ قدرةَ سيفِ خصمه، وكانت المفاجأةُ عندما خرج من صدام السيفين شَرَرٌ تطايرَ حتى شمَل الحلبةَ وما حولها، واحتدم القتال بشكل أثار الخوفَ والذعرَ بين الحضور وهم يرَوْنِ المتباريَيْنِ وقد أخذهما الحماسُ والسرعة في الحركة، لدرجةِ أنّ أحداً لم يَعُد يميز سيفَ أحدِهم من الآخر، واستمر القتال ساعاتٍ شعر الحبشيُّ بعدها بأنه أمام أمر غريبٍ لم يألفه، وجال بفكره وهو في خِضمِّ المعركة أنْ لا سيفَ يجاري سيفَه إلا سيفُ الرحمن الذي لا قدرةَ لإنْسيّ على جَلْبه، وأخذ فكرُهُ مع كل جولة يجدُ فيها نفسَه مشدوداً

إلى سيف الرحمن، ثم يطرُدُ تلك الفكرةَ من أساسها واضعاً في اعتباره استحالةَ الوصول إليه.

وأثناء ذلك أصاب الحبشيُّ حاملَ قَلَنْسُوَةَ الملثَّم التي انحدرت عن جسمه

وما كانت تخفيه من درعٍ أبيضَ، كُتب على ساحته اسمُ الله القاهر داخلَ عَلَمِ مملكته مملكة الوَئام، فضج الحضور وعلَتْ كلمةُ الله أكبر، وانقلب الموقف وبدأت الحلْبة تميدُ تحت أقدام الحبشي، الذي أخذ ينقلب إلى حقيقته عندما بدأ التحوُّل يأخذ مجراه وهو يقاتل بعنف وصبر، بدءاً من رأسه الذي تجرد من خوذته وظهر رأساً صاعداً نحيلاً مكسواً بورٍ أسودَ منتصباً، وفي وسطه قَرْنان أسودان ثبتا على جبهةٍ رقيقةٍ سوداءَ يكسوها الوبر، ثم بدأت عيناه بالامتداد بشكل وحشي نحو الأعلى، ثم برزت له أذنان مخروطيتان بزاويةٍ حادةٍ نحو الأعلى، واستمر تجرُّدُه من ألبسته وظهرت يداه الطويلتان بأصابعَ ممتدة، وفي آخرها أظافرُ حادةٌ بطولٍ يلفت النظر، ثم أخذ جسمُه في النُّحول وظهر له جناحان وذنَبٌ معكوفٌ مدبَّبٌ وفي آخره قطعة عظمية، بإشارة سهمٍ تبعه فخذان نحيلتان سوداوان، والوبرُ الأسودُ يلفهما، وشاهد تجرُّدَ قدميه الممتدتين بأظافرهما الحادة، وقد ألجم تحوُّلُ الحبشيِّ إلى شيطانٍ الجميعَ، وبدت الساحةُ بصَمْتِ حضورِها المُطْبِق، وأعينهم شاخصةُ والخوفُ والرِعشةُ في أوصالهم، وأثناء ذلك سمعوا نداءً مجلجلاً صادراً من الحلْبةِ يطلب من جنوده المساعدة فشاهدوا خروجَ مقاتلين بأسلحتهم من بين ظهراني المنصة والمدرج مقبلين نحو الحلبة، وكان ذلك إيذاناً ببَدْءِ الثورة، في تلك اللحظة أماط الملثَّمُ لثامَه وظهر وجهُ خلدونَ منادياً الله أكبر، فتجاوب معه الجميع بمن فيهم جنودُ الملك، وحمل خلدونُ بشدةٍ على الشيطان الذي لم يجد مناصاً من الهروب وتَرْكِ ما بناه، عندما بدأت أجنحتُه بالتصفيق وهو يغادر الساحة مبتعداً، فما كان من خلدونَ إلا أن ترك الحلْبة مسرعاً نحو حصانه، واستل قوسه ولاحَقَ بزجاجته السحريةِ توجُّهَ الشيطانِ وأطلق سهماً نحوه، وشاهد الجميع الإصابةَ المباشرة، وتوقفت أجنحةُ الشيطان عن الحركة وهو يهوي نحو الأرض.

انقلب عيدُ جلوس الملك أجردَ إلى سقوط، ونودي بوليّ عهده الأميرِ خلدونَ ملكاً متوَّجاً على البلاد على أسسٍ تُعيد ما فقده المجتمع من قيمٍ وأخلاقٍ، منفذاً تعاليم القرآن الكريم مستعيناً بأهل الفقه والأدب والقانون، واستمرّ على ذلك حتى استتب الأمنُ والأمانُ والقانونُ في بلاده بلادِ الوئام، واعتبرها مِنحةً إلهيةً لا تُبارىَ، وإنّ خُطوتَه التاليةَ قد آن أوانها، فسماحُ ما زالت في قلبه ووِجدانه.

وفي إحدى الأمسيات وخلدونُ يجالس زوجتَه سماحَ في شُرفةِ قصره، أخذ يَرْبِتُ على بطنها يدعوه إلى إنجاب مَن يُكْمِل مسيرتَه كما أجازها الشرع الإسلامي الحنيف ويستمر بتحقيق الحق والعدل.

التفتت إليه سماحُ وقد أخذ منها العجب وقالت: عدل؟ أين العدل يا عزيزي والحُرُمات تُنتهَك في كل مكان، والأداما ما زالوا في أرض الأجداد يتوسعون ويبنون مع الأقوياء في أرضِ الجوار صروحاً لهم ولعساكرهم، بها يقيمون وتحت سمائنا يبيتون، في حينِ تخبو الآمالُ في استمرار شُعلة المقاومة مع كل يوم يَمُرّ، ثم تنهدتْ وأطرقتْ وبدأت الدمعةُ تترقرقُ في مآقيها قائلة: لا يستوي العدلُ إلا إذا عاد جسَدُ الأمةِ مترابطاً يتحقق فيه مراد الحديث النبوي، الذي يرى الأمة كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعتْ له سائرُ الأعضاء بالسهر والحمى.

انتهت القصة

@ @ @

بسم الله الرحمن الرحيم

درج الكاتب محمد عدنان سلطاني على اتحافنا بقصصه الشيقة المتجددة والمعبرة عن روح العصر.

وها هي روايته السيف والشيطان التي نحن بصددها بإيطارها الخيالي وأحداثها التي تمثل الواقع الأليم لأمة كثرت كبواتها وأثخنها الجراح تبحث عن مخرج من النفق المظلم الذي زُجت به.

الناشر